ديوان سُراقة البارقي

حققه وشرحه
الدكتور حسين نصّار
أستاذ الأدب العربي
عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة «سابقًا»

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

ديوان
سُراقة البارقي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وتعريف وشكر

هذه أثارةٌ من كلام العرب، من شعر سراقةَ بن مِرْداس البارقيِّ الأصغر، ينشرها لأول مرة فى كتاب، الأديب «حسين نصار» خريج كلية الآداب، من جامعة فؤاد الأول (القاهرة).

ونحن فى مَسيس الحاجة إلى نشر هذا الديوان، وأمثاله من دواوين العرب وأشعارهم التى لم تطبع، وما أكثرها! لأننا نريد التعمُّق فى درس الأدب العربى على المنهج الأقوم؛ ولا يكون هذا إلا بإحياء الآثار الباقية ونشرها؛ وكل محاولة لدراسة الآداب قبل إتمام الكشف عن النصوص والمتون ودرسها وتحليلها، فهى محاولة غير مجدية، لا تؤدى إلى تصور صحيح، أو حكم سليم.

إن دراسة الآداب فى العصور الحديثة، على ضوء المناهج العلمية السليمة للمستشرقين والباحثين، جعلت لكل ما يكتب الأدباء والمنشئون قيمة كبيرة، فى تصور مذاهبهم وخصائصهم، وتطور أفكارهم وفنونهم وأساليبهم، فلا يمكن الحكم على شاعر أو أديب إلا بعد الفحص الطويل عن كل ما خلف من آثار، وهذا منهج فلسفى صحيح، يؤدى إلى نتائج صحيحة ولا ريب. ولذلك شمر العلماء والباحثون والمنقبون، للكشف عن آثار الأدباء، وإبرازها للعيون، وتقريبها من الأيدى. وكان لأساتيذ الجامعات الأوربية فى العصور الحديثة فضل السبق إلى إحياء آثار العرب والمسلمين، فعُنوا بنشرها وطبعها، ووصلوا فى تحقيق ذلك إلى غاية لم يصل إليها الشرقيون المشتغلون بنشر التواليف العربية فى هذا العصر.

حقيقة مؤلمة نعترف بها على أنفسنا وأهل زماننا. أما القدماء من أسلافنا فقد أبلوا فى أداء هذا الواجب العلمى، على أدق المناهج وأوضح الخطط. فلم يألوا جهدا فى جمع دواوين العرب وأشعارهم وكلامهم، رحلوا إلى البوادى، ولقُوا

العرب، وأنفدُوا أعمارهم في تتبع كلامهم، وسماع لهَجاتهم، وتدوين أشعارهم وأخبارهم، وأفرغوا فى ذلك مئات القنينَات من الحِبر، وملئوا من الدفاتر والقماطرِ أحمالا؛ ثم عادوا إلى الحواضر، فقرءوا وحقَّقوا ودوّنوا، وصنفوا وفنَّنوا، وخلَّفوا ما لا يكاد يصدقه العقل من الكتب والتصانيف والشروح؛ منها الآثار الباقية حتى يومنا هذا، ومنها ما ذهبت به الحوادث، فضاع ولم يصل إلى أيدينا؛ ومنها ما حجبته عنا الأثَرَة أو الإهمال، وهو فى الدنيا موجود كمفقود، وذلك ما حُبِس فى الخزائن الخاصة أو شبهها، أو عند من لا يَقْدرُونه قَدْره، ولا يُحِسُّون عائدته على الأمة.

والراغبون فى تحقيق تاريخ المدنيات الشرقية القديمة، من العلماء المحدَثين، لا يزالون فى طور البحث والتنقيب عن الآثار والأصول الأولى، التى خَلَّفها جهابذة العلم ونقاده، لأنها ضرورية لكتابة ذلك التاريخ على وجه يرضى عنه العلم، على ضوء ما عمله الأوربيون من البحث عن أصول المدنيات القديمة، وخاصة المدنيتين اليونانية والرومانية؛ ولا يستطيع الدارسون أن يكتبوا تاريخ العرب وآدابهم، قبل أن يظفروا بهذه الآثار الأدبية، ويفرغوا من تحقيقها ودرسها، على الوجه الصحيح.

لذلك كان حقا على المشتغلين بالآداب العربية فى العصور الحديثة، أن يبذلوا قُصارَى جهدهم فى البحث والتنقير عن نصوص الشعراء والكتاب والخطباء والمؤلفين منذ عصر الجاهلية العربية، وأن يجمعوا ما تفرق من ذلك التُّراث فى خزائن الكتب الخاصة والعامة، من مختلف البُلدان، وأن يتوفروا على دراسة كل أولئك، ويستخرجوا منه نتائجه، وحينئذ يمكن أن يوضع تاريخ أدبى عربى، وإسلامى، وعباسى، وأندلسى، ... إلخ، قائم على أصول معتمدة، ومقدمات صحيحة.

ومن حسن الحظ أننا نرى طلائع النهضة فى هذا العصر، من المنقِّبين المجدِّين، يظفرون بين حين وآخر بشىء من أصول الثقافة العربية والإسلامية، وينشرونه، فيضىء جانبا من تاريخ الثقافة والحضارة كان مظلما. والجهود الكثيرة الموفقة تبشر بأننا لا بد بالغون من ذلك ما نريد، بفضل توجيه العلماء، وازدياد انتشار التعليم الجامعى فى البيئات الشرقية.

وديوان سراقة البارقى الذى نقدمه لجمهور القراء بهذه الكلمة، على ضآلة حجمه، وقلة أشعاره، هو صفحة من صفحات التاريخ السياسىّ والأدبىّ واللغوىّ، فى عصر من أقوى عصور العرب، إبانَ الحكم الأموى فى الشرق، ولذلك يحس فيه القارئ أسْرًا وجَزالة لفظ، وقوة وفخامة معنى، مما وَرِثه الشاعر عن جيله، ثم هو صفحة من صفحات العُروبة، تلمح فيها آثار البداوة، وعَراقة المنشأ والمُرَبَّى، الذى نشأ فيه الشاعر منذ كان، ذلك إلى مزايا أخرى فى فنونه، كالوصف الذى تفوَّق فيه على كثير من أمثاله.

وقد عَثَر عليه الأديب «حسين نصار» التقاطا، على ما بيَّنه فى مقدمته بقلمه. ويسرنى أن أقدم هذا الناشر الناشئ لجمهور قراء العربية؛ فقد كان إلى عهد قريب جدا من طلاب الآداب بجامعة فؤاد الأول، وهو أول خرِّيج فى قسم الليسانس من كلية الآداب هذا العام، بدرجة الشرف، وهو شاب مجتهد جدير بتحمل أمانة العلم، والاضطلاع بأعباء النشر الحديث. فقد أخذ أصوله عن أساتيذه فى كلية الآداب، واطلع على ما نشره الأوربيون من كتب العرب، وعرف مناهجهم، فكانت له ثقافة تمكنه أن يعمل فى هذا الميدان بنجاح. وقد عرفته طالبا دءوبا، لا يمل العمل، ولا يبرَم بما يحمَّل من جَهد فى البحث والدرس والتحصيل؛ وهو الآن على ما عهدته من محالفة للدرس، وحب للعمل، ملؤه الأناة والرغبة فى تذليل المشكلات حين يتصدَّين له؛ بل هو فوق ذلك دائب على الاستزادة من درس اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية، والفارسية والتركية، لأنها من أكبر أعوانه على ما هو بسبيله من البحث والتحقيق.

ولا أحب أن أعْرِض لعمله فى نشر ديوان سراقة، بأكثر من أنه كان يَعْرِض علىَّ مَنهجه وخُطواته، وأنا أوافقه على أكثر ما عمل، وقد أخالفه فى بعض الرأى، لا حبا فى المخالفة، ولا عجزا عن التوفيق بين وجهتى النظر، ولكن آثرت أن أحتفظ له برأيه ومذهبه، ولم أرد أن أملى عليه رأيى إملاء، لأُبقى على شخصيته وحرية فكره، كما عودته هو وزملاءه ذلك من قبل، فى أثناء الدرس بكلية الآداب.

وليس نشره ديوان سُراقةَ إلا عملا أوليا جرى فيه شوطا، استعدادا للسباق فى الميدان، وأنا أتوقع منه عملا كثيرا ناجحا، وأرجو له التوفيق دائما.

وقد قامت «لجنة التأليف والترجمة والنشر» بالإنفاق على طبع ديوان سراقة، وتعهدت بإذاعته ونشره بين قراء العربية، تحدوها الرغبة الكاملة فى معاونة الباحثين والدارسين، على تحقيق أغراضهم العلمية، وخاصةً نشر المخطوطات القديمة، من دواوين الأدب، وأسفار التاريخ، ومصادر الثقافة على اختلاف منابعها، من شرقية وغربية، وأنا أزجى أجزل الشكر وأكمله، بالنيابة عن ناشر الديوان، إلى حضرات العلماء أعضاء هذه اللجنة الموقَّرة، على ما يضطلعون به فى تشييد ثقافة هذا الجيل من أعمال، وما يبذلون من جهود وأموال، وأخُصُّ بالشكر حضرة رئيسها العالم الجليل، الأستاذ أحمد بك أمين، صاحب الفضل الأول فى نشر هذا الديوان.

القاهرة فى ٢٥ من شوال سنة ١٣٦٦
١٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

مصطفى السقا
أستاذ مساعد بكلية الآداب
جامعة فؤاد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

١- سراقة البارقى

لعل جُمهور الأدباء والمتأدبين لا يعرف شيئا كثيرا عن سراقة البارقى، فهم يجهلون أخباره، كما يجهلون أشعاره، اللهم إلا البيت والبيتين، تندُر فى بعض كتب اللغة أو الأدب، وأما شخصية سراقة، وفنه الشعرى، وتصرفاته فى الحياة، فهى أمور مطوية، لا يدرى عنها الناس إلا قليلا، حتى القدماء أنفسهم تناسوا أخباره وأشعاره، ولم يذكروه فى طبقته من الشعراء الوصافين أو الأخلاقيين، الذين امتلأت بذكرهم كتب التراجم.

ولم يسبق لى أن قرأت قصيدة كاملة لسراقة، حتى وقع فى يدى فى يوم من الأيام فهرس الآداب بدار الكتب المصرية، فأخذت أقلب أوراقه، فإذا بهذا الاسم يسترعى نظرى، فأعطيه وقفة خاصة، فأعرف أنه أحد الشعراء، ولم أدر من أى عصر هو، أإسلامى أم أموى؟.

خطر لى بادئ الأمر أنه شاعر جاهلى، وما أكثر الشعراء الجاهليين الذين لا نعرف غير أسمائهم، على رغم دراستنا الأدب العربى الأعوام الطوال، ثم أخذ منى حب الاستطلاع كل مأخذ، فطلبت الديوان، فوجدته صغير الحجم، من القطع المتوسط، ثم قرأت مقدمته فعرفت أنه رواية محمد بن حبيب، وأن سراقة ليس شاعرا جاهليا، وإنما هو أموى. ثم قرأت شعره شيئًا فشيئًا، فحبب إلى؛ لأنى رأيت فيه من خفة الروح، وجميل الأغراض، ما شجعنى على المضى فى قراءته. وعندما فرغت من الديوان تبينت مقدار الخسارة التى لحقت الأدب العربى بإغفال دراسة مثل هذا الشاعر، فرأيت أن أنشر هذا الديوان، وأحيى ذكر صاحبه؛ لأنه جدير أن يحيا، وجدير أن يدرس، وجدير أن يوضع فى طبقته مع من عرف من رجال الأدب العربى فى أزهى عصوره. وإن الخسارة لتظهر لنا جلية عندما نعلم أن

سراقة من الشعراء الذين ناقضوا جريرا والفرزدق، وعندما نعلم أن له من القصائد ما استحسنه قروم العرب وساداتهم.

عزمت على تعريف الأدباء بسراقة، لإيمانى بجمال شعره، وخفة روحه، وارتفاع قدره، وخاصة فى قصائده الطويلة، ولو أن سراقة كان شاعرا صغيرا لاستحق أن يتكلم عنه، فالتاريخ الأدبى الكامل يعنى بالشخصيات الكبيرة والصغيرة، لا يغفل منها شيئًا، لأن فضل الفاضل من الشعراء، إنما يظهر جليا إذا وضع بجانب تقصير المقصر، كالعين الحوراء لا يبين حسن بياضها إلا بجانب شدة سوادها، وقد يكشف الشاعر الصغير من مزايا عصره ما لا يكشفه الشاعر الكبير؛ وإذن فدراسة الشاعر أمر ضرورى لإكمال التصور الشعرى للعصر، وإنى أستشهد هنا بقول الأستاذ لاسِلْ أبِرْكُرُمْبِى Lascelle Abercrombie فى كتابه «التطور فى الأدب» "Progress in Literature" إذ يقول: «حقا إن أردأ الكتب تعطينا أوضح انعكاس للميول والتأثيرات والعادات والتقاليد والحركات والمواد الأخرى القيمة لدى المؤرخ الأدبى» ولكن آفتنا أو آفة تاريخنا الأدبى إهماله صغار الشعراء الإهمال الفظيع، فكان تصورنا للعصور الشعرية تصورا ناقصا؛ لأنه تناول عظام الشعراء، وغض النظر عن صغارهم، لقد سمعت أستاذا فى قسم اللغة الإنجليزية بالجامعة يقول: «أردت ذات يوم أن أعرف بعض الشعراء العرب، فأخذت كتابا فى التاريخ الأدبى، وجعلت أقلب صفحاته، فوجدته يصف كل شاعر بالعبارة المأثورة: «أحد فحول الشعراء» كأن لم ينجب العرب إلا شعراء فحولا؟ فكيف يُطلب منا تصور العصور الشعرية تصورا واضحا جليا، ونحن لا نعرف إلا فحول الشعراء؟!.

أرجو أن أكون بنشرى شعر سراقة قد أضفت إلى المعروفين من رجال الأدب العربى ثروة جديدة، وكشفت عن شخصية نستطيع أن نصلح بها بعض الأحكام الأدبية القديمة، ونضع الحق فى نصابه، ونعطى الدارسين فرصة حسنة لتقدير شاعر كريم على الأدب العربى، يستحق التقدير فى ميزان النقد الصحيح.

بحثت عن أخبار سراقة لأتبين من هو؟ وما عصره؟ وما مكانته فى قومه وعند أهل زمانه؟ وجعلت أقلب كتب المحاضرات، والموسوعات، والمجموعات الأدبية،

والمظان التى يرجح أن تكتب عنه شيئًا، أو تورد له من شعره بعض الأبيات، فإذا بى أجد ظاهرة غريبة حقا، هى إهمال القدماء سراقة إهمالا يكاد يكون تاما، فهو لم يرد له ذكر فى معظم هذه الكتب. والذى ذكره منها أشار إليه إشارة موجزة أشد الإيجاز، كما نرى ذلك فى كتاب الأغانى الذى أورد له مقطوعتين من شعره فى تضاعيف ترجمته لشاعرين آخرين هما كثير وجرير. وكان أكثر من كتب عنه محمد بن حبيب فى مقدمات القصائد، وأخذت أسأل أساتذتى والكتب، حتى ظفرت بما أستطيع أن أسميه ترجمة بعد لأى وجهد.

سراقة هذا الذى أبحث عنه، هو سراقة بن مِرداس البارقى الأصغر، وهناك شاعران آخران يعرف كل منهما بسراقة بن مرداس، ويميز أقدمهما بالبارقى الأكبر، وهو الذى اشترك فى حرب مع قريش، حين قتلت قريش أبا أزيهِر الدوسىّ، فقتلت به الأزد جماعة من أشراف قريش، وجعلت عليهم خَرْجًا كل عام، غير من قتلت منهم، وهو القائل[1]:

لقــد علـمتْ بنـو أسـدٍ بـأنَّا	تقـحَّـمْنَا المعَـاشرَ مُـعْلمـينا
تركنـا تسـعـةً لـلطيـر مـنهم	بمـكةَ للسـباعِ مـطرَّحـينا
فلمـا أنْ قـضـينَا الدينَ قـالوا:	نريدُ الصلحَ قلنا: قـد رضـينا
وضـعنا الخَرْجَ مـوظوفًا عليـهم	يؤدُّون الإتـاوةَ صـاغـرينا
لنا فـى العيـرِ دينارٌ مـسـمى	به حَـزَّ الحـلاقمِ يتَّـقُـونا
ولولا ذاك مـا عَـدَلَتْ قـريشٌ	شِمـالا فى البلادِ ولا يمـينا

وقد تُنسَب هذه الأبيات لمُعَقِّر بن حِمار البارقى أيضًا، ولم أجد لسراقة هذا ذكرا ولا شعرا فى كتب الأدب المعروفة بين أيدينا.

ويشاركهما فى الاسم شاعر آخر يسمى سراقة بن مرداس، ويميز بالسُّلَمى، نسبة إلى سُليم، وهو ابن الخنساء الشاعرة المشهورة، وأخو العباس بن مرداس الشاعر المخضرم المعروف، وسراقة هذا هو الذى يقول فى يوم أوطاس من أيام غزوة حنين، حين طاردته بنو نصر على فرسه الحقباء[2]:

(١) الآمدى: المؤتلف والمختلف، ص٣٤، طبعة ١٤٥٣هـ.
(٢) نفس المرجع، ص١٣٥.

ولولا اللهُ والحَـقْـبـاءُ فـاظتْ ... عـيـالى وهى بـاديةُ العـرُوقِ
إذا بدتِ الـرمـاحُ لـهم تـدلَّتْ ... تدلِّـىَ لَقْـوةٍ مـن رأسِ نِيـقِ

ولم يرد لسراقة هذا أيضا ذكر فى الموسوعات الأدبية.

أما سراقة الأصغر، الذى نتحدث عنه هنا، فهو سراقة بن مرداس بن أسماء بن خالد بن عوف بن عمرو بن سعد بن ثعلبة بن كنانة بن بارق، وبارق بطن من الأزد، سميت باسم سعد بن عدى بن حارثة، الذى اكتسب اسم بارق لنزوله جبلا بالسَّرَاة، يُعرف بهذا الاسم، وسعد هذا - أو بارق - أخو خزاعة الذى نسبت إليه قبيلة خزاعة.

لم أستطع أن أعرف شيئًا عن مولد سراقة ونشأته، إلا ما يمكن استنباطه من شعره، وإنه لقليل؛ وأظن أن كثيرا منه قد ضاع كما ضاع شعر غيره من الشعراء.

ويظهر لنا سراقة - أول ما يظهر - عام ٦٦هـ محاربًا للمختار ثائرا عليه مع أشراف الكوفة، بعد استيلائه على ولايتها بقليل، ولكن المختار لا يلبث أن يخمد الثورة، ويقبض على زعمائها، ومن بينهم سراقة، فيأمر بحبسهم، فيعتذر إليه سراقة، ويمدحه:

ألا أبلغْ أبا إسحاقَ أنَّا ... نـزوْنا نـزوةً كـانـتْ علـينـا
خـرجْنا لا نرى الضعـفاءَ شيئـا ... وكـان خـروجُنا بطَـرا وحَـيْنا
لقـينا منهـمُ ضـربا طِـلَخْـفـا ... وطعنـا صـائبـا حـتى انْثَنَـيْنَا
نُصِـرتَ علـى عـدوكَ كلَّ يومٍ ... بكلِّ كـتـيـبـةٍ تَنْـعَى حسـينا
كنصـرِ محـمـدٍ فى يومِ بَدْرٍ ... ويومِ الشِّـعـبِ إذْ لاقَى حُنيـنا
تقـبَّـلْ توبـةً منـى فـإنى ... سـأشكرُ إن جـعلتَ العـفـوَ دَينا

ثم يدعى أنه رأى الملائكة، تحارب مع المختار - وهذا ما كان يزعمه المختار - وأن الذى هزمه وأسر قومه هم الملائكة، الذين كانوا يلبسون الثياب البيض، ويركبون الخيل البُلق، ويحلِّقون بها بين السماء والأرض، وفى هذا الموقف تظهر سعة حيلة سراقة ودهاء المختار السياسى؛ فسراقة يستغل آراء المختار، ولا يكتفى بهذا، بل يستغل أشياء أخرى، فيقول للمختار بعد أن أمر بقتله: إنك لتعلم أنه ما هذا أوان تقتلنى فيه؛ فيقول له المختار:

فمتى أقتلك؟ فيقول: إذا فتحت دمشق، ونقضتها حجرا حجرا، ثم جلست على كرسى فى أحد أبوابها، فهناك تدعونى، فتقتلنى وتصلبنى. وهنا يظهر دهاء المختار السياسىّ؛ فإنه لا يدع الفرصة تمر من بين يديه، دون أخذ كل ما يمكن أخذه منها، فيرد عليه قائلا: صدقت. ثم يلتفت إلى صاحب شرطته غاضبا، ويقول: ويحك؟ من يخرج سرى إلى الناس؟ إذن فهذا سِرّ للمختار، وإنى لموقن أنه ليس بسرٍّ له، وإنما سُرّ من تبشير سراقة له بفتح دمشق، وأحب أن يُعلم من حوله هذه البشرى، وأنها من نياته. ثم أمر سراقة بصعود المنبر، والقسَم أمام الملأ بأنه صادق فى رؤيته الملائكة، وإن فى هذا القسم لدعما لمَزْعم المختار هذا ومزاعمه الأخرى أيضا. ثم عفا عنه المختار بعد أخذه كل ما يريد منه.

هذه إحدى القصص التى ذكرت لنا ما كان بين سراقة والمختار، وهناك سياق آخر لهذا القصة، مفصل تفصيلا كبيرا، يختلف بعض الاختلاف عن السياق السابق، ولذلك أُورده هنا من العقد الفريد[1] قال ابن عبد ربه:

«أُخِذَ سراقة بن مرداس البارقى أسيرا يوم جَبَّانة السَّبِيع، فقُدِّم فى الأسرى إلى المختار، فقال:

امننْ علىَّ اليومَ يا خيرَ معدْ　　يا خيرَ منْ لبَّى وصلى وسجدْ

فعفا عنه المختار، وخلى سبيله، ثم خرج مع إسحاق بن الأشعث، فأُتى به المختار أسيرا، فقال له: ألم أعفُ عنك، وأمنن عليك؟ أمَا والله لأقتلنَّك، قال: لا والله، لا تفعل إن شاء الله، قال: ولم؟ قال: لأن أبى أخبرنى أنك تفتح الشام، حتى تهدم مدينة دمشق حجرا حجرا وأنا معكم، ثم أنشده:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنا　　حملنا حملة كانت علينا

الأبيات.

فخلَّى سبيله، ثم خرج إسحاق ومعه سراقة، فأخذ أسيرا، وأُتِى به المختار، فقال: الحمد لله الذى أمكننى منك يا عدو الله، هذه ثالثة، فقال سراقة: أما والله، ما هؤلاء الذين أخذونى، فأين هم؟ لا أراهم! إنا لما التقينا رأينا قوما عليهم ثياب

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ١ ص١٨٣ طبعة بولاق.

بيض، وتحتهم خيل بُلْق، تطير بين السماء والأرض، فقال المختار: خَلوا سبيله ليخبر الناس، ثم دعا لقتاله، وقال:

ألا مَن مبلغُ المختار عنى | رأيتُ البلقَ دُهْمًا مُضْمَرات
أُرى عينىَّ ما لم ترْأياهُ | كلانا عالمٌ بالترَّهَات

ولم أجد لهذا التفصيل أثرا فى كتب التاريخ، فهى لا تذكر لنا خروج إسحاق بن الأشعث على المختار.

نجا سراقة بفضل ذكائه ودهائه، فذهب إلى مصعَب بن الزبير بالبصرة، مع من ذهب من أشراف الكوفة؛ وهناك هجا المختار، ودعا لقتاله بالأبيات السالفة الذكر، وفضحه فى العالمين. ثم لا أدرى ماذا حدث له بعد ذلك، ولكنى أظن أنه ذهب إلى عبد الملك بن مروان بدمشق، ومكث هناك حتى مجيئه لقتال مصعبَ. فخرج معه سراقة، مصاحبًا أخاه بشرا الذى عرفه هناك، فاستظرفه وقرّبه. وعندما تولى بشر الكوفة ضمَّه إليه، وجعله أحد ندمائه وسُماره، يتلاعبان ويتضاحكان، كما تذكر لنا قصة السيل فى ديوانه، قال الراوى:

«قحطَ الناسُ فى زمن بشر بن مروان؛ فخرجوا فاستسقوا وبشر معهم. فرجعوا وقد مُطِروا، ووافق ذلك سيلا جاء من الليل، فغرقت ناحية بارق وبنى سليم. فخرج بشر من الغد ينظر إلى آثار المطر حتى انتهى إلى بارق، فإذا الماء فى دار سراقة بن مرداس البارقى، وسراقة قائم فى الماء. فقال: أصلح الله الأمير، إنك دعوتَ أمس ولم ترفع يديك، فجاء ما ترى، ولو كنت رفعت يديك لجاء الطوفان، فضحك بشر، فأنشأ سراقة يقول:

دعا الرحمنَ بشرٌ فاستجابا | لدعوته فأسقانا السحابا
وكان دعاءُ بشر صَوْبَ غيث | يُعاشُ به ويُحيِى ما أصابا
أغرُّ بوجهه يُسقَى ويُحْيَا | ونَستجلى بِغُرته الضَّبابا

ويظل سراقة طوال عهد المختار ومصعب وبشر ظاهرا أمامنا؛ فيمدح إبراهيم ابن الأشتر الذى انتدبه المختار لقتال ابن زياد سنة ٦٦، ويرثى عبد الرحمن بن

مخنف الذى قتلته الخوارج عام ٦٨هـ، ثم يحرضه بشر الذى كان مغرما بتحريض الشعراء، وإثارة بعضهم على بعض، حتى يتهاجوا ويتلاحوا، ويمسك بعضهم بتلابيب بعض، يحرضه على هجاء جرير وتفضيل الفرزدق، فيقول قصيدته:

لِمَن الديارُ كأنهن سطورُ   قفرٌ عفته روامسٌ ودهورُ

ويقول فيها:

إن الفرزدق برَّزَتْ حَلَبَاتُه   عفوا وغُودرَ فى الغبار جريرُ
ذهب الفرزدقُ بالفضائل والعُلَى   وابنُ المَراغةِ مُخَلَّفٌ محسورُ

وقد نسخ بشر القصيدة، وأرسلها لجرير، وأمره أن يجيب عنها. فثارت ثورته، ولم ينم ليلته حتى نظم قصيدته:

يا صاحبىَّ هلِ الصباحُ منيرُ   أم هل للومِ عواذلى تَفْتِيرُ؟

ويقول فيها:

أسراقَ قد علمتْ معدٌّ أننى   قدمًا إذا كُرهَ الخيَاضُ جسورُ
أسراقَ إنك قد غَشِيتَ ببارقٍ   أمرًا مطالعُه عليك وعورُ

وهناك خبر آخر[1] عن سبب اشتباك سراقة بجرير، يقول إن الذى حرّضه هو محمد بن عُمير بن عطارِد بن حاجب بن زُرارة، الذى بذل أربعة آلاف درهم وفرسا، لمن فَضَّل من الشعراء الفرزدق على جرير، فلم يُقدِم عليه أحد منهم إلا سراقة، وكان ذلك سبب اتصال الهجاء بينهما. ويظهر أن وقت الخصومة لم يطل، فإننا لا نجد فى ديوانه إلا قصيدتين يهجو فيهما جريرا، كما أن جريرا لم يذكره فى ديوانه إلا نحو ثلاث مرات. وقد أُفْحِم سراقة حين سمع شعر جرير، بل لا نلبث أن نراه مخاصما للفرزدق، مغاضبا له، مفضلا جريرا عليه، يقول:

قد كنت أحسبُ يا بنَ قَيْنِ مُجاشعٍ   أنْ قد خَصاك فلا تَغطُّ جرير
ولقد علمتَ على تَبَاغيك الخنَا   أن الخصىَّ إذا استُفِزَّ ذَعور

ويذكره فى مطولته:

إن الأحبةَ آذَنُوا بترحُّلِ   وبصُرْمِ حبلك باكرا فتحمَّلِ

(١) أبو الفرج الأصفهانى: الأغانى (جـ٨ ص٦٨ طبعة دار الكتب المصرية).

حيث يقول:

فــإذا تقــبل ربُّنا من شــاعــر　　　فَـعلى الفـرزدق لعنةُ المـتـبـهلِ

وفى هذه الفترة أعتقد أنه مدح بشرا ببعض الشعر، ولكن ذلك الشعر لم تبق منه إلا مقطوعة السيل.

ثم نسمع صـوت سراقة آخر مرة عـام ٧٥هـ ينشد رثاءه عبد الرحـمن بن مِخْنف الذى قتله قطرىٌّ بن الفجاءة:

ثوى ســيـد الأزديـن أزد شَنُوءَة　　　وأزدِ عُـمَـان رَهْنَ رَمْـسٍ بكازَرِ

وقـاتلَ حـتى مـات أكرمَ مِـيـتَـةٍ　　　بأبيضَ صـافٍ كـالعـقـيـقـة باتر

وقصيدته:

إنْ يقــتـلوك أبا حكـيم غَـدْرَةً　　　فلقـد تَـشُـدُّ فـتـقـتـلُ الأبطالا

إن يُثكِـلونا ســيِّـدًا لـمُـســوَّدٍ　　　ضخم الدَّسِـيعة مـاجدا مفـضالا

ولا نسمع صوته مـرة أخرى، وإنما نلمح اسمه فى «البـداية والنهاية» عام ٧٩هـ فى قائمـة المتوفَّين، حـيث يقول ابن كثيـر: إنه هجا الحجاج، وهرب منه إلـى عبد الملك، وأقام بالشـام حتى توفى ذلك العام. كـما نلمحه فى أمـالى الزجاجى، الذى يقول إنه مات فى حدود ثمـانين من الهجرة. ويروى الجاحظ قصة لسـراقة فى كتاب «المحاسن والأضـداد» فى باب «فضائل الدهاء والحيل» يقول إنها حـدثت عندما كان خالد بن عبد الله القَسْرى واليا على الكوفة، وخالد هذا تولى الكوفة من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٠٦هـ بعد عـزل عمر بن هُبَيْرة الفَزَارى، ولذلك أرجح أن القصة حدثت فى عهد بشر بن مروان، لا خالد بن عبد الله.

هذا كل ما نـعرفه عن تاريخ سـراقة الذى ظهـر على مسـرح الشعـر عام ٦٦هـ، وأنزل عليه الستار عـام ٧٩هـ، فما هى إلا مدة قصيـرة، وإن كانت ملأى بالحوادث، وخاصة الحوادث الحربية.

اتفق كل من كتب عن سراقة أنه كان ظريفا، زَوارا للملوك، محبوبا لديهم ودليل

ذلك كلامه لبشر حين أغرق السيل بيته. وأذكر هنا قصة أخرى، نرى فيها شيئا كثيرا من ظرفه، فقد دبر كيدا ظريفا لأحد أصدقائه، وإنه لكيد لا يختلف عن مكايد أظرف المصريين اليوم فى شىء. يقول الجاحظ فى كتاب «المحاسن والأضداد» باب «محاسن الدهاء والحيل»:

«كان الأحوص بن جعفر المخزومى يتغدى فى دير اللُّج، فى يوم شديد البرد، ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقى، فلما كان على ظهر الكوفة، وعليه الوبر والخز، وعليهما الأطمار، قال حمزة لسراقة: أين يذهب بنا فى البرد، ونحن فى أطمار؟ قال: سأكْفيكَه؛ فبينما هو يسير إذ دنا منهم راكب مقبل، فحرّك سراقة دابته نحوه، وواقفه ساعة، ولحق بالأحوص؛ فقال له: ما خبَّرك الراكب؟ قال: زعم أن الخوارج خرجت بالقُطْقُطَانَة، قال: بعيد، قال: إن الخوارج تسير فى ليلة ثلاثين فرسخا وأكثر. وكان الأحوص أحد الجبناء، فثنى رأس دابته، وقال: ردُّوا طعامنا نتغدى فى المنزل. فلما حاذى منزله قال لأصحابه: ادخلوا، ومضى إلى خالد بن عبد الله القَسْرى؛ فقال: خرجت خارجة بالقُطْقطَانَة. فنادى خالد فى العسكر فجمعهم، ووجّه خيلا تركض نحو اللُّج، لتعرف الخبر، فأعلموه أنه لا أصل للخبر. فقال للأحوص: من أعلمك بهذا؟ قال: سراقة، قال: وأين هو؟ قال: فى منزلى. فأرسل إليه من أتاه به، قال: أنت أخبرته عن الخارجة؟ قال: ما فعلت، أصلح الله الأمير، قال له الأحوص: أتكذِّبنى بين يدى الأمير؟ قال خالد: ويحك! اصدُقْنى، قال: نعم، أخرجنا فى هذا البرد، وقد ظاهر الخز والوبر، ونحن فى أطمارنا هذه، فأحببت أن أردَّه، فقال له خالد: ويحك! وهذا مما يتلاعب به؟!».

وكان سراقة أيضا شديد الاعتداد بقبيلته بارق، متعصبًا لها، بعد أن محا الإسلام أمر العصبيات، ولكنها عادت سيرتها الأولى فى عهد بنى أمية؛ بفضل السياسة التى انتهجوها، سياسة التفريق بين القبائل، والميل إلى المضرية تارة، وإلى اليمنية أخرى، وقصر الوظائف على إحداهما نكاية فى الأخرى. ولا يعتد سراقة بعشيرته بارق وحدها، وإنما يفخر بقبيلته الأزد، بل بجميع القبائل اليمنية، مما نراه شائعا فى قصائده ومقطوعاته، فهو يذكر فى:

أبتْ عين ابنِ عمِّك أن تناما ... بجنبِ الطَّفِّ واحتمَّ احتماما

جمهورَ القبائل اليمنية واحدة واحدة. يسبغ عليها كل محمدة، فهذه الأزد:

وقد أحمِي الحقيقةَ كل يومٍ ... وتحمى الأزدُ أنفى أن أراما

أناسٌ يأمنُ الجيرانُ فيهم ... كمكةَ ما تمسُّ بها الحماما

وهذه مَذْحِج:

ومذحج إذ تقر بهم جميعا ... رأيتَ قرومَ مَذْحِجنا عظاما

وهذه هَمْدان:

وفى همدانَ ضربٌ حين تُلْقَى ... يُطير معاصما ويُبين هاما

وهذه كِنْدَة، وهذه خثعم، وهذه...، وهذه... إلى آخر القبائل اليمنية، يمدحها ويسبغ عليها كل صفة كريمة، ثم يختم القصيدة بهجاء نِزَار وتعييرها:

فعُداً مثلَ ذا يا بَنِىْ نزارٍ ... وذاكَ عليكما أمسى حراما

ولن تجدا ملوكا فى نزار ... وآباءً كآبائى كِراما

وهناك قصص أخرى تدل على ذلك الاعتداد، فهذه قصته مع كثير، وتلك قصته مع إبراهيم بن الأشتر النخعي اليمنى، الذى حارب فى صف المختار ضد اليمنيين والربعيين، أى كان مناهضا لسراقة وقومه، ولكنه عندما قتل إياس بن مضارب وهددته ربيعة، لم يتذكر سراقة العداء الذى بينه وبين إبراهيم، والحِلف الذى بينه وبين ربيعة، وإنما تذكر القرابة بينه وبين إبراهيم، فهما يمنيان، نراه يمدحه ويهجو حلفاءه من ربيعة:

أتُوعِدُنا ربيعةُ فى إياسٍ ... وأىَّ الدهرِ أوعدنا قبيلُ

حروريٌّ تكنَّفَه الموالى ... وعضٌّ برأسه سيفٌ ثقيل

وإبراهيم معتزٌّ هزَبْرٌ ... له فئةٌ تقول كما يقول

يمانيَةٌ تذود الناسَ عنه ... وتخطر فى جوانبها الفحول

وبسبب تلك العصبية الغالية، وهذا الغلو الجموح، أطلقتُ عليه لقب «شاعر الأزد» أو «شاعر اليمن» فى تلك الفترة من الزمن.

٢- شعر سراقة

إذا ألقينا نظرة عـامة على شعر سراقـة وجدنا أنه نظم الشعر فى ثمـانية أغراض، هى: الاستعطاف، والحكمة، والحماسـة، والفخر، والمدح، والهجاء، والوصف، ولكن يسترعى نظرنا الـهجاء، فهو الغرض الذى غلب عـلى غيره فى الديوان، ويتلوه الرثاء، ثم يتنازع الفخر والمدح والحكمة المكان الثالث، وأحب أن أتناول بعض هذه الأغراض بشىء من التفصيل والتحليل.

الحكمة

وأبدأ بالكلام على حكمـة سـراقة، أو المـذهب الاجتـمـاعى الذى سار عليـه، وتحدث عنه كثيرا فى ديوانه، ناثرا لأجزائه فى القصـائد والمقطوعات المتعددة، فإذا جمعنا هذه النظرات الأخلاقية المنتشرة فى الديوان، اجتمع لنا مذهب أخلاقى كامل، وتكشَّف عن رجل أخلاقى ناقد للمجتمع. وإنى لمحلل بعض نظراته فيما يلى:

يبدأ سـراقة مذهبه بالنـصح فى الأمور العائلية، فـينصح بالزواج من ذات الخُلُق والدين وإن تكن غير وسيمة، فالمورد العذب كثير الزحام:

لا تطلبنَّ فـتـاة من وَسَـامـتـهـا ما لم يوافقكَ منها الدينُ والخُلُقُ

وهذه هى النظرة الإسلامية التى يمثلـها الحديث الشريف: «تنكحُ المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين ترِبتْ يداك».

ويقول: ابتعد جهدَك عن هؤلاء النسوة اللائى يـتحشمن ويتلففن، ثم يسرن ليلا فى جوخى.

* وهل تَسْرِى بجوخَى الحرائرُ *

وجوخى هذه محلة بالعراق، لعلها كانت مرتاد أهل الملاهى والعبث والمجون.

ثم عليك بالرفق مع زوجك وأولادك، فهو جامع الأهل، ومـسبغ أسباب الهدوء والسعادة؛ أما الحماقة والهوج فلا يجلبان إلا النحس والشقاء لصاحبهما:

ثم الأقارب، هل يدعك سراقة لا تدرى كيف تعاملهم؟ لا، وإنما ينصح باحترام ابن العم، فلا تهنه أدنى إهانة، ولا ترفع كفك لتصفعه؛ وإنه يكرر ذلك القول مرتين، دليلا على إكباره واستصعابه، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك فيدعو على نفسه بالشلل لو أمسك بتلابيبه أو ناصيته:

ولستُ بلاطمٍ وجهَ ابنِ عمى   وشُلَّ الخمسُ منى إن نصوتُ

أما قينة أقرباتك فلا تَلْهُ بها، ولا تقتف أثرها، لتتطفل عليها، وتتطلع على أسرارها، وهى النظرة الإسلامية الممثلة فى الآية الكريمة: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء: ٣٦).

ثم يترك سراقة الأمور العائلية إلى الإخوانية، فينصح بملازمة الحلماء، وتجنب السفهاء، فإن الصديق مرآة الصديق، فإن جالست السفيه فأنت مثله، وإن جالست الحكيم فأنت الحكيم:

فإنك والقرينَ معا سواءٌ   كما قدَّ الأديمُ على الأديمِ

وينصح فى السلوك العام بعدم السماح للكلمة القبيحة بالمرور على اللسان، فتدنسه وتلطخه بالأقذار، و * دعِ الفواحشَ ما استطعتَ لأهلهَا * فإنها لا تليق بك، وأنت لا تليق بها، ولا يعنى هذا أن تكون ضعيف الإرادة خائر العزيمة، لا، * فإذا هممتَ بأمر صدقٍ فافعَل * فهنا الإرادة والعزيمة، لا فى اللهو والخلاعة، وإذا ضاقت ذات يدك، وتدهورت بك الحال، فلا تلبس ثوب الذل والخنوع، ولا تنحن لغير الوهاب المتفضل، فتوسل إليه وحده؛ فهو القدير على كل شىء. أما إذا تألق نجمك، وازدادت ثروتك، فلا تبطَر، فتتبع دواعى اللهو وأسبابه؛ فإن هذا ممزق عرضك، مضيع شرفك، فصنْ نفسك كى يصان عرضك، وكن كريما جوادا، لا تبخل فى مقدم البذل، وإذا قدرت فاعفُ. ولا تتحين الفرصة حتى إذا وجدت الذليل أثقلت ظهره بالظلم والجور، لا، ليس من كريم الخلق أن «يرى مولاك مهتضما» وفى قدرتك أن ترفع عنه الضيم، وتحميه من الذل. وإذا اختلفت الآراء، وضلت الحلوم، وأشكل الأمر، وصعب المخرج، فتشبه بأسلافك الكرام، واطلب معالى الأمور، فإنك ذو النسب الرفيع السامى:

كذاكَ نَشأتُ فى قومى صغيرا ... وربَّونى بذلك إذ ربوتُ

هذا هو المذهب الذى نشئ عليه سراقة، وأخذ نفسه به، وإنه لمذهب تختلط فيه المثل العليا الأخلاقية الجاهلية بالمثل الإسلامية اختلاطا عجيبا، ولكنه مذهب سليم فى مجموعه لا تشوبه شائبة، وقد يقول قائل: إذا كان سراقة رجل أخلاق، فما باله يغرم بالهجاء، ومناقضة الشعراء، وإن هذا ينافى التمسك بالفضائل وإيثار الصالحات من الأقوال والأفعال؟.

ولا أجد عسرا فى الجواب عن هذا الاعتراض، فإنما كان سراقة يهجو الشعراء هجاء قبليا، دفاعا عن حوزته وعشيرته، كما كان مؤثرا للعفة فى القول، والبعد عن الصراحة المؤذية، بل كان هجاؤه جاريا مع المثل الأخلاقية التى رسمتها البيئة العربية، والنظم الإسلامية فى ذلك العصر، كالتعيير بضعف القبيلة، وجبنها عند اللقاء، وما إلى ذلك من النقائص العامة، أما إعلان المخازى والمساوئ، والتشهير بالمحصنات من النساء، وما شاكل ذلك، فكان أبعد شىء عن خيال سراقة ولسانه، وما علمناه إلاّ عف اللسان والضمير، نزيه القول. كما أن عُظم الذنب يقع على نفس البيئة التى وجد فيها سراقة، فهى التى دعت لوجود النقائض، حتى إننا نجد جريرا الذى اتفق كل من كتب عنه على تدينه، نجده تصدر منه نقائضه المفحشة البذيئة، الملأى بالعورات والمساوئ، التى كان يستغفر منها جرير نفسه.

الوصف

وأنتقل بعد هذا إلى الفن الذى أبدع فيه سراقة وفاق أقرانه، وهو الوصف، وخاصة وصف الخيل، فليس فى الديوان غير قصيدة واحدة فى وصف الخيل، ولكنها طويلة، ولا تتناول إلا ذلك الوصف، فلا تخرج عنه إلى شىء آخر كالقصائد العربية الأخرى، ولعلها أعظم قصائد سراقة، كما أنها من أعظم ما وصل إلينا من الأشعار العربية فى وصف الخيل.

يبدأ سراقة القصيدة بقوله:

زعمتْ ربيعة وهى غير ملومةٍ ... أنى كبِرتُ وأن رأسىَ أشيبُ

فيذكر نساء قومه، وحبه الخيل، وصرفه الأموال الكثيرة عليها، واعتناءه بها.

وجـعلتُـهُ دون العـيـالِ شـتـاءه — حتى انجلى وهو الدخيلُ المُقْرَب
والقـيـظَ حـين أصـــونه فى ظُلة — وحْشيُّها قـبلَ الغـروب مشـقَّب
وله ثـلاثُ لقـــائـحٍ فى يومـــه — ونخـــيـــره مع لـيله مـــتـــأوِّب

ثم ينتقل إلى وصف فرسه وصفا مفصلا دقيقا، يتناول كل جزء من جسمه فيبرزه لنا أحسن إبراز، وما أشـبه سراقة فى مـوقفه هذا بالآلة المصوِّرة، تسلَّـط عينها على ذلك الفرس العظيم الجسـيم، فتصوره لنا مقـبلا ومدبرا، ومعرضـا، تصور لنا رأسه وجسمه وقوائمـه، تصور لنا كل شىء منه، فلا تغادر كبيرة ولا صغـيرة إلا جلتها فى مناظرها، وأبانت عنها أحسن إبانة، ولكـنى حين أشبه سراقة بالمصـورة أظلمه ظلمًا كبيرا فهو لا يكتفى بعملهـا الآلى اللاقط للحقيقة، وإنما يضفى على تلك الصور من قلبه الحب والعطف والعناية، فتنساب على المناظر، فتـهبها البريق والطلاوة، والحياة المشبوبة العواطف، فهو أشبه بعظماء الرسامين الذين تركوا لنا الألواح الخالدة، فهو يأخذ الألفاظ الميتة فينفث فيها من روحه، فإذا بها عظام تكتسى لحما، ولحم يكتسب قوة، وقوة تفيض بالحياة، وإذا بكل ذلك أمامنا يصـير جوادا يتوفز بالنشاط، وتجرى فى عروقه الدماء، مـثله مثل الفنان الخالد يمسك الأدهان والألوان، فيـجرى بريشته على الورق الصـقيل، وإذا بالألوان تتـداعى، ويسـعى بعضـها إلى بعض، فـتتـآلف وتجتمع فى صورة تفيض بالبهاء والجلال، وتشع منها العظمة والخلود.

ها هو ذا سراقة واقفا أمام فرسه المنتصب كالتمثال، وكأنه قد أمسك بريشته، وأخذ يرسم الخطوط، فيخرج لنا الصورة إثر الصورة، تمـثل الفرس أجمل تمثيل وأحسنه، ثم يثور حبه وإعـجابه بهذا الفرس الذى بذَّ الأفراس، فيجمع ألواحـه، ويسير نحوه، فيربت على ظهره حـانيا، ربتات فيها الحب والعطف والإعجاب. وليس هـذا مما يثير الدهشة، فـقد رباه سراقة منذ الصـغر، حتى بلغت به الحـال إلى ما نراه فى المناظر التى خلفها لنا سراقة فى أبياته. ولم يكن سراقـة يقتصر على هذا الإعجاب والفخر، بل يظهرهما لقـومه، ويتيه عليهم بفرسه، ويفـعل ذلك مرارا وتكرارا. وإذا بأحدهم ذات يوم يضيق صدره بهـذا الإعجاب وذلك التيه، فـينبرى لسراقة، يرد عليـه فخره، مشيدا بفرسه هو، فإذا باللجاج يتعالى، وإذا بهما يتراهنان على السباق فى يوم معلوم.

أخذ كل فرد من المتشاركين فى السباق يستعد له: يدرب فرسه، ويهيئه للعَدْو الطويل السريع، ويعنى به كل عناية، حتى إذا كانت ليلة السباق تجمعوا فى الموضع الذى سيبدءون منه، وأخذ كل منهم يحدد له موضعا للوقوف فيه غدا، وتركوا الأفراس طليقة ترعى وتستريح، استعداداً لليوم المشهود، وعندما بزغ فى السماء نور الفجر المتورد فطمس النجوم والكواكب، استدعى كل امرئ فرسه، وخلع عنه جُلّه، وأوقفه فى نقطة البدء، منتظرا إشارة السباق.

انطلقت الخيل مندفعة، ولكن فرسه يبرز من بين الصفوف، لا يلوى على شىء، إذ الخيول الأخرى مجهدة متعبة، يضربها فرسانها بالسياط والمهاميز، ولكن أين هى من قوة فرس سراقة ونشاطه؟!.

أخذ الفرس يسابق الريح للوصول إلى الشرف البعيد الذى استأنس بمرآه، وإذا بكوكبة من أبناء القبائل المختلفة تتابعه النظر، معجبةً مهللة، أما الخيول الأخرى فلا يحمسها ويهلل لها إلا أبناء قبائلها، وأخيرا انتهى فرس سراقة إلى الغاية، وأحرز قصب السبق.

لا يعتبْ علىّ القارئ، فقد سحرتنى حماسة السباق، وتتبع المتسابقين، والإعجاب بفرس سراقة، عن اقتطاف بعض الأبيات من القصيدة، ليجول فيها خياله وخاطره، ويمتع عينيه وأذنيه وقلبه، ولكن القصيدة فى الديوان، وكلنا يستطيع أن يرجع إليه، ومع ذلك لن أضن بإيراد بعض الأبيات هنا:

والخيلُ تعذِلُنى على إمساكها	وتقولُ قد أهلكتَ ما لا يُحسبُ
فحلفتُ لا تنفكُّ عندى شَطْبةٌ	جرداءُ أو سَبْطُ المشدَّة سَلْهبُ
أما إذا استقبلتَه فيقودُهُ	جذعٌ علا فوقَ النخيل مُشذَّبُ
ومُعرَّق الخدينِ رُكِّب فوقه	خُصَل وسامعةٌ تظلُّ تقلبُ
راهنتُ قومى والرهان لَجاجةٌ	أحْمى لمُهْرى أن يُسَبَّ وأرغبُ
بتنَا برأسِ الخطِّ نقسم أمرنا	ليلا يجول بنا المراءُ ويهضبُ
عجَّلتُ دفعتها وقلتُ لفارسى	راكضْ به إن الجوادَ المُسْهَبُ
حتى أتى الصفين وهو مبرِّزٌ	بمكانه رأىُ البصير مُغرِّبُ

وأرجو أن يلاحظ القارئ الحركة، بل العدو السريع فى الأبيات الأخيرة من القصيدة، فالشاعر يعدو لاهث الأنفاس، يسابق الأوزان، كما يسابق فرسه الأفراس.

شاعت هذه القصيدة بين العرب فى المجامع، وجعلها القوم حديثهم فى المجالس، حتى قال عنها الحجاج: «من أراد أن يبصر بالخيل فليرو قصيدة بارق هذه» وإننا لنلمح فى هذه الكلمة التى أُثرت عن الحجاج ما يرفع من قصيدة سراقة، فهو لم يضفها إلى صاحبها وحده، وإنما نسبها إلى قبيلته، كأنها مفخرة من مفاخرهم، ومأثرة لهم فى العرب، وكأنها أشبه بمعلقة عمرو بن كلثوم، التى تضاف إلى تغلب، وتعد من مفاخرهم، ويعتمدون عليها فى مفاخرة القبائل ومساماتها، حتى شاع ذلك فى العرب، وقال بعض الشعراء، يهجو تغلب فى اعتمادها على الفخر بهذه القصيدة:

أَلْهَى بنى تغلب عن كلِّ مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرُو بن كلثوم

وبالرغم من هذا الإبداع، لم يذكر أحد من الرواة سراقة فى طبقة وصاف الخيل المشهورين، ولا ندرى بم نعلل ذلك الإغفال، ألأن شعر سراقة ضاع من أيدى الرواة، ولم يعرفه إلا قلة منهم أم لأن اختلاط اسمه باسم سلفه البارقى الأكبر، واسم سراقة السلمىّ، أحدث لبسا وغموضا فى نسبة الأشعار الخاصة بكل واحد منهم؟ وربما كان مرجع ذلك إلى أن كثيرا من مجاميع الكتب التى اختارها كبار الأدباء والرواة قديما، وضمنوها أشعار القبائل فُقد فى الحوادث التى طرأت على البلاد الإسلامية فى العصور المختلفة.

عُرف جماعة من الشعراء بوصف الخيل، هم: امرؤ القيس، وعلقمة الفحل، وأبو دواد الإيادى، وطفيل الغنوى، والنابغة الجعدى، وسلامة بن جندل، فأردت أن أوازن بينهم وبين سراقة، حتى أعرف موضعه منهم.

وأفتتح الموازنة بشعر أمير الشعراء امرئ القيس، وقد وصف الخيل فى عدة قصائد، ولكنه وصف قصير لن أقف عنده، وإنما أقارن قصيدة سراقة بتلك القصيدة التى فاخر بها امرؤ القيس علقمةَ الفحل التى مطلعها:

خليلىَّ مُرَّا بى على أمِّ جندبِ لنقضىَ حاجاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ

وهو يصف الفرس فيها بما يقرب من الثلاثين بيتا، يبدأ بتصوير جسمه جزءا جزءًا،

وهو يصف أجزاء لم يصفها سراقة، ولكنه يصفه من جانب واحد فقط، أما سراقة فيصفه من جميع الأنحاء، مقدما ومدبرا ومعرضا، ولا يفعل ذلك امرؤ القيس وإن كان يمتاز بكثرة التشبيهات:

عظيم طويلٍ مطمئنٌّ كأنه ... بأسفلِ ذى ماوانَ سَرْحةُ مَرْقَبِ

يبارى الخَنوفَ المستقلَّ زِمَاعُهُ ... ترى شخصه كأنه عودُ مشجبِ

له أيْطلا ظبيٍ وساقًا نعامةٍ ... وصهوةُ عَيْرٍ قائمٍ فوقَ مرقبِ

له جُؤجؤٌ حَشْرٌ كأن لجامه ... يعالى به فى رأس جذع مُشذَّبِ

وعينانِ كالماويتينِ ومحجرٌ ... إلى سندِ مثلِ الصفيح المُنصَّبِ

ويصف فى هذه القصيدة الصيد، وجرى الفرس للحاق به، ولكنه لا يعدل قصيدة سراقة فى ذلك، ويختلف عنه اختلافا كبيرا، ونستطيع أن نقول إن الحركة السريعة تظهر فى قصيدة أخرى لامرئ القيس، مطلعها:

أحارِ بنَ عمرو كأنى خَمِرْ ... ويعدو على المرءِ ما يأتمرْ

وهو يصف فيها الفرس وصفا مفصلا:

وأركبُ فى الروعِ خَيْفانةً ... كسا وجهها سَعَفٌ منتشرْ

لها حافرٌ مثل قعب الوليـ ... ـد رُكِّبَ فيه وظيفٌ عَجِر

لها ثُنَنٌ كخوافى العقا ... بِ سودٌ يَفِئْنَ إذا تَزْبَئِر

وساقان كعباهما أصمعا ... نِ لحم حماتيهما منبتر

لها كَفَلٌ كصفاةِ المسيـ ... ـل أبرز عنها جحافٌ مضر

لها ذنب مثل ذيل العروسِ ... تسدُّ به فرجها من دبر

فيصفه مقبلا ومدبرا ومعرضا، ويتسع أحيانًا، ويضيق أحيانا أخرى، ولكنّ السرعة التى تظهر فى هذه الأبيات، هى سرعة الوزن لا سرعة الفرس، فنحن لا نجد أى وصف فيها لعدو الفرس. وقد لاحظت شيئا مهما آخر، هو ظهور عاطفة سراقة، وحبه للفرس فى قصيدته، على حين أن امرأ القيس لا يبين عن شيء. فسراقة فارس عربى قح، يعيش مع فرسه، ويعتمد عليه فى الشدائد، يشاركه فرسه حلو العيش ومره، ويعنى صاحبه به فى الحالين. وقد صور سراقة هذا فى قصيدته أجمل تصوير.

نجد من هذا أن سراقة يتفوق على امرئ القيس فى التفصيل والحركة السريعة والعاطفة، وإن كان امرؤ القيس قد ترق عباراته، وتعذب ألفاظه، ويقل الغريب فيها، فيفوق سراقة فى السهولة.

وأترك امرأ القيس إلى خصمه علقمة الفحل، الذى نافسه فى وصف الخيل، وديوانه يحتوى على نحو ثلاث قطع فى وصفها، ولكن أكثرهن تفصيلا هى قصيدته التى ناقض بها امرأ القيس، التى مطلعها:

ذهبتَ من الهِجران فى غيرِ مذهبِ ... ولم يكُ حقـا كلُّ هذا التجنبِ

وهى لا تختلف كثيرا عن قصيدة امرئ القيس، حتى لم يستطع قدماء الرواة التفريق بينهما، واختلطت أبياتهما اختلاطا شديدا. وعلقمة يتناول أجزاء من الفرس لم يتناولها سراقة، ولكن سراقة أوسع أفقا منه، وأكثر تفصيلا. وعلقمة مثل امرئ القيس يصف صيدا، وسراقة يصف سباقا. ولذلك نرى فى علقمة قوة وعنفا أكثر مما نجد فيه حركة وسرعة. ومع ذلك لا تظهر هذه الحركة إلا فى أبيات قليلة بالنسبة لأبيات سراقة. وكذلك لا تظهر عاطفة علقمة فى قصيدته، وألفاظه أشد غرابة من ألفاظ سراقة، وهكذا نجد سراقة يفوق علقمة فى التفصيل والعاطفة والسهولة، والألفاظ المألوفة.

ثم نأتى إلى طفيل الغنوى الذى سمى «المحبِّر» لحسن وصفه الخيل، وقال عنه الأصمعى: أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة، وهو كان يركبها منذ الصغر، حتى صار الفارس المغوار، ولذلك كان يحسن ذلك الوصف إحسانا شديدا، وينثر طفيل وصفه للخيل فى جميع الديوان، حتى يكاد يدخل فى كل غرض من أغراض ديوانه، ولكنه يجمع ذلك المتفرق فى قصيدته التى مطلعها:

بالعُفْر دارٌ من جميلةَ هيَّجتْ ... سوالفَ حبٍّ فى فؤادك مُنْصِبِ

ويورد فيها ما يقرب من خمسين بيتا فى وصف الخيل، وكذلك قصيدته:

ألا هل أتى أهلَ الحجاز مُغارُنا ... ومن دونهم أهلُ الجنابِ فأيهبُ

شآمية إنَّ الشآميَّ دارهُ ... تشقٌّ على دار اليمانى وتشغبُ

التى يرد فيها نحو من ١٥ بيتا فى ذلك الوصف، ولكن طفيلا ليس واصفًا

للفرس، حَلْبة أو صيد، بل يصف جماعــات من الخيول تتزاحم وتتصادم، وتعدو هنا وهناك، تختــفى تارة وتبــرز أخرى، فــهو واصف لمـيدان القـتال الذى تتـصادم فـيه الفرسان، وتتــلاقى فيه الأفراس، فيــختلط الفارس بالراجل، ويعلو القَتَام حـتى يغبر لون السماء. فهــو يختلف عن سراقة اختلافــا تاما، وهو شبيه بامرئ القــيس فى كثرة التشبيهات، فهو شاعر «كأن» وألفــاظه غريبة. وأخيرا نستطيع أن نقول إن سراقة يمتاز عن طفيل بوصفه للفرس الواحدة، وبسهولة ألفاظه، وبحبه لفرسه.

كنت أحب أن أنتقل من طفيل إلى أبى دُواد الإيادى، الذى يقول عنه أبو عبيدة: أبو دواد أوصف الناس للفرس فى الجــاهلية والإسلام، وقــال عنه ابن الأعرابى: لم يصف أحد قطُّ الخيل إلا احتاج إلى أبى دواد، وقد كان على خيل المنذر بن النعمان ابن المنذر، ولذلك تمكن من معرفة الخيل المعرفة الجيــدة، فقال فيها الشعر الجيد، ولكنى لم أجد فى المجموعات الأدبيــة التى بين أيدينا اليوم إلا البيتين أو الثلاثة التى لا تدعم تلك الشهرة.

وكذلك النابغة الجعــدىُّ لم أجد من شعره غير قصــائد قليلة، وقد وصف الخيل فى إحداها فى عــشرين بيتا تفـيض بالألفاظ الغريبــة، وهو لا يصف الفرس الوصف المفصَّل، وإنمــا يصور سيرها وعــدوها، ولا يتعرض لجسمــها إلا فى النادر، وهكذا يسبــقه ســراقة سبــقا بعــيدا، وليس ذلك بغــريب؛ فإن الأصــمعى يقــول عنه: «وأما الجعدى فإنه سمع ذكرها من أشعار الشعراء، فأخذ عنهم» وليس المقتبس كالأصيل.

وآخر الأمر نصل إلى ســلامة بن جندل، وله ديوان صغير بــه بعض المقطوعات التى تصور الخيل، وأكثرها تفصيلا قصيدته التى مطلعها:

أودى الشبابُ حَميدا ذو التعاجيبِ ... أودى وذلك شــأوٌ غــيــرُ مطلوبِ

وهو يصف فيهــا سير الفرس، ولا يتعرض لرسم صــورته، فلا يمكننا من تخيله كاملا أمــامنا، بل يتركنا نرى عدوا وسرعــة وغبارا ثائرا. وقد تظهر فــى شعره العناية بالفرس والعاطفة نحوه، ولكنها عناية قاصرة، لا تطاول حب سراقة وعطفه وحنانه.

نجد أن هؤلاء الشعراء الذين اشتهروا بوصف الخيل قــد يشاركون سراقة فى كثير من خصائصه، ولكنى أستطيع أن أقول إنه خير من رسم صورة لفرس واحدة، معطيا

أدق التفاصيل، كاشفا عن أصغر الأجزاء، فى ألفاظ مألوفة، وأسلوب عذب، يختلف عن ذلك الأسلوب الذى كان يتكلفه القدماء فى وصف الخيل، حتى تولدت منه تلك الطَّرَديات التى نجدها عند الشعراء المتأخرين، مثل أبى نواس، والمتنبى، والتى كانوا ينظمونها رجزا، ويتعمدون فيها الغريب، الذى كان من أبرز خصائص الطرديات، ولذلك كان جديرا بقول الحجاج: «من أراد أن يبصر بالخيل، فليروا قصيدة بارق هذه».

الهجاء

أما الغرض الأكبر عند سراقة فهو الهجاء، وهو ضربان: نقائض، وهجاء عادى، فالنقائض مع جرير، ثم مع الفرزدق، والهجاء العادى موجه للمختار وكُثَيِّر والقبائل الشمالية. وفى غالب الأمر يرجع ذلك الهجاء إلى سبب قبلى؛ فهو يهجو المختار لمحاربته قومه، ويهجو كُثَيِّرًا لتنصُّله من اليمن، وادعائه أن خزاعة من كنانة قريش؛ ويهجو جريرا لأن محمد بن عمير قريب الفرزدق يبذل الأموال لتفضيله على جرير، أو طاعة لأمر بشر، الذى كان مغرمًا بإثارة الهجاء بين الشعراء، ليلتفت بعض القبائل إلى بعض، ولا تجد الفراغ للالتفات إلى الخليفة الأموى.

وسراقة فى نقائضه مع جرير يهجو يربوعا رهطه بالنهم والبخل والضعف والخفة:

فإنْ أَهْجُ يربوعًا فإنىَ لا أرى	لشيخهمُ الأقصى على ناشئٍ فضلا
صغارٌ مقاريهم عظام جعورهم	بِطاءٌ إلى الداعى إذا لم يكن أكلا
قُبَيِّلَةٌ لا يدركون بتَبْلِهم	ولا يسبقون الدهر مُطَّلِبًا تَبْلا

ويهجوهم بأنهم عبيد أخساء لؤماء يأملون الفرار:

حرِّرْ كليبا إن خيرَ صنيعة	يوم الحساب العِتقُ والتحريرُ
اضربْ عليهم فى الجَواعِرِ حَلْقةً	تبقى فإنَّ إباقهم محذور

ويفضل الفرزدق على جرير:

إن الفرزدقَ برَّزتْ حلباته	عفوا وغودرَ فى الغبار جرير
ما كان أولَ مِجْمَر عثرتْ به	أنسابه إن اللئيمَ عثور

وفى هجائه للفرزدق يلقبه بابن القين الذى شهره به جرير، ويصفه بالذعر والخنا:

قد كنتُ أحسب يا بنَ قَيْنِ مُجاشعٍ ... أن قد خصاك فلا تَغطُّ جريرُ
ولقد علمتَ على تباغيك الخنا ... أن الخصىَّ إذا استُفِزَّ ذَعورُ

ونقائض سراقة تختلف اختلافا جوهريا عن نقائض غيره من شعراء ذلك العصر، فنحن لا نرى فيها ذلك الإفحاش، ولا ذكر العورات التى أوغل فيها جرير والفرزدق، وهى مأثرة لسراقة تدل على أدبه ونزعته الأخلاقية الحكمية، التى ظهرت جلية فى إكثاره من الحكم والنصائح فى شعره.

أما هجاؤه العادى فيهجو المختار بالكذب والادعاء، ويدعو لقتاله:

كفرتُ بوحيكم وجعلتُ نذرا ... علىَّ قتالكم حتى المماتِ
إذا قالوا أقول لهم: كذبتم ... وإن خرجوا لبستُ لهم أداتى

ويصف كثيرا بالكذب أيضا، وبالرشوة أو أخذ العطاء:

لعمرى لقد جاء العراقَ كُثيِّرٌ ... بأحدوثة من وحيه المتكذِّبِ
فإن كنتَ حرا أو تخافُ مَعرَّةً ... فخذْ ما أخذتَ من أميرك واذهبِ

وهجاؤه لربيعة ونزار وتميم والقبائل الأخرى هجاء قبلى، مثل هجاء سائر الشعراء الإسلاميين والجاهليين، تعبير بالضعف والثأر والهزيمة وما يدور حولها، ويوجد هذا الهجاء مختلطا بالمدح والفخر والأغراض الأخرى.

نرى من ذلك أن صورة الهجاء عند سراقة هى صورة الهجاء القبلى الجاهلى، لم تتغير كثيرا اللهم إلا فى هجائه للمختار، وذكره للوحى والدين؛ وإن الصورة الجاهلية لتبرز كل البروز فى بيته هذا من هجاء قوم جرير:

قُبيِّلةٌ لا يدركون بتَبْلهم ... ولا يسبقون الدهر مُطَّلبًا تَبْلا

الفخر

يملأ الفخر ديوان سراقة، ويختلط بالمدح والرثاء والهجاء والأغراض الأخرى، ويفتخر سراقة بنفسه شاعرا، وبقومه من الأزد ومن اليمن شجعان محاربين؛ فيضفى

كل مجد عليهم، ويخصهم بكل صفات الحمد، أما الشماليون فيقصيهم عن كل ما تشم منه رائحة الفخر والعز. وفخره مثل أى فخر عند أى شاعر آخر، ولكنى أحس بأن سراقة فى فخره أصدق من عمرو بن كلثوم فى معلقته، فعمرو يبدو فيها شابا نزقا طائشا، فائر الثورة، يقول ما لا يدرى، وسراقة يخلع على نفسه ثوب من يقرر أشياء مسلما بها، فيقول:

قومى شنوءةُ إن سألتَ بمجدهم ... فى صالحِ الأقوامِ أو لم تسألِ
ومآثرٍ كانت لهم معلومةٍ ... فى الصالحين وسؤدُد لم يُنْحَلِ
الدافعين الذم عن أحسابهم ... والمُكْرمين ثَويَّهم فى المنزلِ
والمطعمين إذا الرياح تناوَحتْ ... بقَتامِها فى كل عامٍ مُمْحلِ

لكن عمرو بن كلثوم يهدر ويُزْبِد قائلا:

وقد علمَ القبائلُ من معدٍّ ... إذا قُبَبٌ بأبطحِهَا بُنينا
بأنَّا العاصمون بكل كَحْلٍ ... وأنا الباذلون لمُجْتَدينا
وأنا المانعون لما يلينا ... إذا ما البيض زايلتِ الجفونا
وأنا المنعمون إذا قدَرنَا ... وأنا المهلكون إذا أُتينا

وإنى إن قررت اختلاف فخر سراقة عن فخر عمرو، فإنى لا أدعى أن سراقة لا يبالغ، بل كثيرا ما يبالغ، ويبالغ مبالغةً كبيرة، ولكن لهجته تختلف عن لهجة ابن كلثوم، وإن كان فخره لم يخرج عن إطار الفخر الجاهلى.

يفتخر سراقة بنفسه، فيفضلها على شعراء عصره، والعصور التى سبقته، ويصف نفسه بالبازى، ويظهر أن ذلك كان ميزة عامة فى ذلك العصر، فنحن نرى جريرا يفضل نفسه على الشعراء، وكذلك الفرزدق والأخطل وغيرهم، ويشبهون أنفسهم بالبوازى تنقض من السماء على المهجو. ويبدو أن ذلك كان نتيجة لازدهار فن النقائض، ولا أعنى أن شعراء العصور الأخرى لا يفضلون أنفسهم على غيرهم، وإنما أعنى أنهم لو فعلوا ذلك لم ينظموه شعرا، وإن فعله الكبير منهم لم يفعله الصغير، وأما فى تلك الفترة فكان ذلك ظاهرة شملت جريرا وسراقة.

وأحب الآن أن أورد مثالا من فخر سراقة، وهو من أحسن قصائده تبيانًا لروحه، وكشفًا عن دخيلته، تلك هى قصيدته التى مطلعها:

إنَّ الأحـــبـــةَ آذنـوا بتَـــرَحُّلِ ... وبَصُـرْمِ حـبلِكَ باكـرًا فتـحـمَّلِ

ولا أدرى ما الذى يجعلنى أتذكر معلقة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بسقطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

كلما وقع نظرى على هذه القصيدة، وهمـا تختلفان فى الوزن؟ ألاتحـادهما فى القافـية، أم لاستخـدام سراقة قـصص امرئ القيس، أم لذكـره إياه عدة مرات فيـها؟ ولعل كل ذلك يتجـمع بعضـه إلى بعض، حتى يتحـد فيصـير خاطرا واحـدا، يدعو قصيدة امرئ القيس عند لَمْحِى قصيدة سراقة.

يبدأ سراقـة القصيدة بالغزل دون النسـيب، فلا أطلال ولا دِمَن، ولا وقوف ولا بكاء، وإنما سفر وهجران:

ذُلُلا حُـمـولتـهـا بِبَـيْنٍ عـاجلٍ ... خُضُـعًا سـوالفهـا تعوم وتعـتلى

يمشى ويوجف خِـدرها بغمـامة ... صـيـفـيـة فى عـارضٍ مـتـهللِ

رابٍ روادفـهـا ينوءُ بـخَـصْـرِها ... كـفَلٌ لهـا مثـل النقـا المتـهـيِّلِ

أيامَ تـبـــســم عن نـقىٍّ لـونُهُ ... صـافٍ يـزينه سـواكُ الإسـحلِ

ذهبتْ بقلبك فى الأنـام ومثلُهـا ... شعفَ الفؤادَ وسرَّ عـينَ المُجْتَلى

هذا غزل يريد سراقة أن يقلد فيه امرأ القـيس، ولكنه بعيد عن غزل امرئ القيس الخليع المـاجن، فـهناك الغـزل الصريح والقـصص العـارية، وهنا الفـتاة الـجمـيلة المخدرة، ثم ينسى سراقة نفسه فيشير إلى أنه يريد تقليد امرئ القيس:

ما زادَ من وجدٍ علـى وجدى بها ... إلا ابنُ عـــمى يوم دارة جُـلْجُلِ

عقـرَ المطية إذ عـرضْنَ لعقْـرِها ... إنَّ الكـريمَ إذا يهـــيَّجْ يفـــعلِ

ويأخذ فى رواية قصة دارة جلجل فى أبيات جد جميلة، وجد عفيفة، وإن خُلق سراقـة ليغلب عليـه، حتى فى ذلك الموقـف الذى يلبس فيه ثوب الخلـيع الماجن، فيقول:

فدعِ الفواحش ما استطعتَ لأهلها وإذا همــمتَ بأمر صــدق فافــعل

وبعض الأبيات الأخلاقية الأخرى، وإنها لعثرة لسان تُبين عن طبع يغالب، ولكنه طبع راسخ ثابت الأصول، وكـانت هذه العثرة مؤدية إلى تنبـه سراقة لنفسـه وخلقه، فقال هذه الأبيات الخلقية. ثم كانت مؤدية إلى تنبه سراقة لقومه، فإذا به يفخر بهم، ويهجو معدًا. وكان هذا الفخر قائدا له إلى الفخـر بنفسه كشاعر هذه القبيلة العظيمة، فيسـبغ على نفسه كل فضل وكل تفوق، وأين الشـعراء الآخرون بجانبه؟ فـقد أصاب من القريض طريقة عجز عنها بقية الشعراء:

ولقد أصبتُ من الـقريض طريقةً أعـيتْ مصـادرها قـرينَ مـهلهل

بعد امـرئ القيس المنوَّه باسـمه أيامَ يهـذى بالـدخـول فـحـوْمل

وأرجو أن تفطن إلى خـفة الروح التى تظهر فى كلمة «يـهذى» فما معلـقة امرئ القيس إلا هذيان.

وأرادها حــسـانُ يومَ تعــرضتْ بَرَدَى يصـفَّق بالرحـيـقِ السلسلِ

وأبو بصـيـرٍ ثَمَّ لـم يـصـُرْ بهـا إذ حلَّ من وادى القريضِ بمحفلِ

ويعدد الشعراء واحدا واحدا، ثم يذكر فى ساقتهم عبد الله بن الزبير.

عـمدًا جـعلتُ ابن الزَّبيـر لذنبـه يعـدو وراءهمُ كـعــدوِ الشـيْـتَلِ

وإنها لصورة مضحكة تلك التى رسمها سـراقة بهذا البيت، وإن فيها ما يبين عن رقة سراقة وظرفه.

هذه القصيدة أظنها معارضة لمـعلقة امرئ القيس، لا معارضة بالاصطلاح الدقيق المعروف، وإنما معارضة بأوسع ما يدل عليه اللفظ، وهو يمثل الفكرة التى قالها ابن بسام فى كتابه «الذخيرة، فى محـاسن أهل الجزيرة» إنك إذا أردت أن تعارض قصيدة شهيـرة قوية، فاختـر بحرا غير بحرهـا، كى تتحرر من أسرها وإغرائهـا، وتحسن فى بحرك ما شاء لك الإحسان؛ وهذا ما فعله سراقة.

ونحن وإن لم تجد فيها فـخامة امرئ القيس وجزالته، نجد فيهـا رقة سراقة وعذوبته، ففيـها الروح الفكه، والظل الخفيف، والمـوسيقى العذبة الباسـمة، بخلاف معلقة امرئ القيس

الجادة برغم مجونها، الجزلة برغم خلاعــتها، التى لا ترق إلا فى القصص الغرامية، فالمعلقة ليست فى ظرف قصيدة سراقة، وهو الظريف العراقى، لا الماجن البدوى.

وبالرغم من عذوبة حــديث سراقة، وحــلاوة أسلوبه، نجده يخــتلف عن عذوبة جرير اختلافا كــبيرا، فعذوبة قصيدة ســراقة مكتسبة من خفة روحه؛ أمــا عذوبة شعر جرير فآتية من رقــة ألفاظه وحسن صياغتــه. فجمال سراقة وابتســامته تطل عليك من بين السطور؛ أما فى شعر جرير فهى فى نفس الألفاظ، فأشعار سراقة ومعانيه ظريفة، وألفاظ جرير وموسيقاه رقيقة.

وبالرغم من أن ســراقــة ظريف عــراقى، فــإنه يخــتلف عــن أبى نواس الظريف العراقــى الآخر، فالأول العــراقى الأموى، والثــانى العراقى العــباسى، على مــا بين عصــريهما من تــفاوت فى الصراحــة الأدبية، والأخذ بالمــثل الأخلاقــية، والتقــاليد العربية. فظرف سراقة ليس كمجون أبى نواس، وإنما تغلب عليه نزعة أخلاقية بالرغم من تدبيره المكايد لأصدقائه، أما أبو نواس فيفجر ويتماجن ويتفاكه بأفحش الفكاهات مع أصدقــائه من النساء والــرجال، فهــو ليس بسراقــة، ولا يشبــه سراقــة، وإن كانا يجمعهما الظرف ولطف الشمائل.

الرثــــــــاء

لا أتكلم كثيرا عن رثاء سراقة، فهو لا يختلف عن رثاء غيره، ولكنى لاحظت أنه لم يرث أحدا مات حتف أنفه، وإنما جــميع من رثاهم قواد قُتلوا فى الحروب، وهم إما من بارق أو من الأزد، فــرثاهم باعتبــاره «شاعر الأزد» وهذه مــأثرة لسراقة؛ فــهو صادق فى رثائه؛ لــم يتكلف فيه أى شىء مــن الكذب، ولهذا السبب نــجد فى رثائه الكمد والحقــد والثورة، إلى جانب الحزن والحســرة، فيختلط رثاؤه بالفخــر اختلاطا عجــيبا. كمــا لاحظت أن مقتل أحــد قواد عَصــره، قد يذكره بمن مــات فى الحروب الماضيــة، فيذكرهم واحدا واحــدا، ليدل بذلك على شجاعــة الأزد وبلائها القديم، يقول فى قصيدته:

أعينــىَّ جُودا بالدموع الــ ـكب ... وكــونا كــواهى شــنَّةٍ مع راكبِ
وكنا بخيــر قبل قــتل ابنِ مِخْنفِ ... وكلُّ امرئ يوما لبعض المذاهبِ

ثم يتذكر القتلى الأقدمين فيقول:

وما الليثُ إذ يعدو على ألفِ فارسٍ	وتحت هوادى خيلهم ألف ناشبِ
مـؤازٍ ولا عِـدْلٌ لعـروةَ إذ غـدا	على صفٍّ صفينَ العظيمِ المواكبِ
ولا جُنْدُبًا إذ صال بالسيف صولة	على ساحرٍ فى حافة السوق لاعبِ
وكـان أخـا ليلٍ طـويلٍ قـيـامُـه	إذا النومُ ألهى حبُّـه كلَّ جـأنبِ
وقـيسُ بن عوفٍ فـاندبيـه بعبـرةٍ	إذا الخيلُ جالتْ بالرجال عصائبِ

الأغـــــراض الأخـــــرى

وبقية الأغراض التى نظم فيها سراقة لا أهميـة لها: لأنه لا يقول فيها غير البيتين أو الثلاثة، لا يزيد على ذلك إلا فى النادر، ولعـل كثيرا من شعـره ضاع من الرواة، كما قلت من قبل ولذلك أتركها الآن إلى شىء أهم هو تحقيق شعر سراقة.

٣- تحقيق شعر سراقة

فى دار الكتب المصـرية نسختان مخطـوطتان كاملتان من ديوان سـراقة البارقى، وقد اعتمدت عليهما كلتيهما فى تحقيق الديوان وشرحه، فرمزت إلى أولاهما بالحرف «ص» لأنها الأصل الأول، وثانيتهما بالحرف «ش».

النسخة (ص):

النسخة الأولى من الديوان محفوظة تحت رقم ٦١٤ أدب، وهى نسخة مستقلة، لا تحوى غـير ديوان سـراقة، وعـدد ورقاتها خـمس وثلاثون من القطع المـتوسط، مقياس كل منها ٢٣ × ١٤سم، وعدد سطور كل صفـحة خمسـة عشر سطرا، وهى بخط فارسى معتاد، وقد نقلت عن نسخة محـفوظة بالآستانة فى مكتبة عاشر أفندى، رئيس الكتاب الأسبق بالآستانة، تمت كتابتها سنة ١٢٧٩هـ وليس عليها اسم الناسخ.

ويتخلل أبيات الشعر شروح وتعليقات قليلة من عمل الرواة، ولكنها مختلطة، لا يتمـيز عمل واحد منهـم من عمل الآخر إلا فى النادر، ولم يخل هامش النسـخة من تقيـيدات تشرح بعض الغامض من الشـعر، وبعضهـا تصحيح لرواية المتن، أو تنـبيه على نسخ أخرى، وهى غير منسوبة ولا معروف صاحبها.

وقد جـرى الكاتب على أن يكتب بعض كلمـات بالمداد الأحـمر، وخاصـة عند الانتقـال من قصـيدة إلى أخرى، والنسـخة مضـبوطة، ولكن يشـيع فيهـا الخطأ فى الضبط، ولعل ذلك مز قلم الناسخ.

والنسخة خاليـة من السماعات المحدثة، والتمليكات ونحـوها، وقد أضيفت إلى دار الكتب المصرية سنة ١٨٨٣م.

النسخة (ش):

أما النسخة الثانية فهى ضمن المـجموعة رقم ٦ش أدب، و «ش» رمز لصاحبها، وهو الشيخ محمد محمود بن التلاميـذ التركزى الشنقيطى اللغوى المشهور، ويحتوى

هذا المجموع «على جملة وافرة من دواوين العرب العرباء، وأولها: هذا (ديوان حسان بن ثابت) وواحد وثلاثون من دواوين شعراء هذيل، وديوان لبيد، وديوان الأعشى، وديوان ذى الرُّمَّة، وديوان ابن الدُّمَيْنَة، وديوان سراقة البارقى[١]».

ونرى من العبارة السابقة أن ديوان سراقة البارقى آخرها، وهو يشغل عشر ورقات من صفحة ٢٤٤ إلى ٢٥٤ لأن الديوان يرقم صفحة ويترك الأخرى، ومقياس الصفحة ٢٤ × ١٨سم، وفى كل صفحة ثلاثة وعشرون سطرا، وورقها خفيف مصقول.

وهى مكتوبة بالخط النسخى المعتاد، وليس عليها اسم كاتبها، وقد فرغ من نسخها فى يوم الاثنين الحادى والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ١٢٩٣هـ، وبها ضبط قليل للمشتبه من الألفاظ، وعليها تعليقات وتقييدات بهامشها بالمداد الأحمر، ويكتب الناسخ صدر مقدمة القصائد بذلك المداد.

ولا نعلم شيئا عن النسخة التى نقل عنها الناسخ هذا الديوان: أهى النسخة «ص» التى فى دار الكتب المصرية؟ أم النسخة التى نقلت عنها «ص» وهى فى الآستانة؟ أم غيرهما؟ وقد زار الشيخ الشنقيطى الآستانة، واستنسخ فيها عدة كتب، فلعله استنسخ هذا الديوان من ثمة، لأننا نجد تشابها كبيرا بين هذه النسخة وبين النسخة «ص» فيما حوته من شعر سراقة، فهى طبق لها، ولا تكاد تختلف عنها إلا فى تصحيح ما بالنسخة «ص» من تحريف أو تصحيف فى بعض المواضع، وهى تزيد هذا البيت:

برزنا إذ رأيناهم فلما ... رأينا القومَ قد برزوا إلينا

على ما فى «ص» ولعله سقط من ناسخها.

على أنها تمتاز بشىء جوهرى، وهو أن التعليقات التى بالنسخة «ص» كان بعضها فى المتن، وبعضها على هامش النسخة، أما فى هذه النسخة فنجد جميع التعليقات بهامشها، ولا نكاد نجد للشيخ الشنقيطى نفسه أيه تعليقات زائدة على تعليقات القدماء، التى ذكرناها آنفا، وكلها مكتوب بالمداد الأحمر.

---

(١) عبارة مقدمة النسخة.

الـــــرواة:

ديوان ســراقة من رواية اللغـوى الحسـين بن على النَّمَـرى، عن السكرى، عن الإمام اللغوى محمد ابن حبيب؛ وقـد عورض برواية أخرى لابن الأعرابى، أما كاتبه فيـسمى نفسه أبا أحـمد، وهذا كله منصوص عليـه فى النسختـين «ص» و «ش» بعد المقطوعة:

أُقـاتلُ مَـــهْـديًا وتلكَ سَــفـاهةٌ وأمـرٌ بدَا لـى غَـيُّـهُ مُـتـــفـاقمُ

حيث يقـول: «هذا آخر ما وجـدته بخط الحسين بن على النمـرى؛ يقول: هذا آخر مـا وجدته بخط السكرى؛ يـقول: هذا آخر مـا وجدته فى كـتاب ابن حـبيب، والحمـد لله، ووجدت بخط الشيخ أبى أحـمد بعد ذلك: قـابلت بجميع مـا مضى، وأعلمت عليه، وكـتبت ما لم يكن، ووجدت بخط ابن الأعـرابى...» وعبارة «ش» تقرب من ذلك، كما تذكر أسماء الرواة أكثر من مرة فى التعليقات، وقد ذكر اسم راوٍ آخر يسمى أبا رياش فى تعليقته على البيت:

إن الفـــرزدقَ برَّزتْ حـلَبَـــاتهُ عـفوًا وغُـودرَ فى الغـبارِ جـريرُ

وإنى مقدم ترجمة قصيرة لكل واحد من هؤلاء الرواة:

ابن الأعـرابــــى:

أبو عبد الله محمـد بن زياد الأعرابى، ولد بالكوفة سنة ١٥٠هـ = (سنة ٧٦٧م) من أب سندى، كان مولى للعـباس بن محمد الهاشمى، وبعـد موت أبيه تزوجت أمه المفضل الضبى، فأصبح أستاذه، وقرأ أيضا على القاسم بن معن.

وقد قال ثعلب فى ابن الأعرابى: «شاهدت مـجلس ابن الأعرابى، وكان يحضره زهاء مئة إنسان، وكان يُسأل ويُقرأ عليه، فيجـيب من غير كتاب» وقال فيه أيضًا: «قد أملى على الناس ما يُحْمَل على أجمال، لم يُرَ أحدٌ فى علم الشعر أغزر منه».

وتوفى عام ٢٣١هـ وله من العمر ٨١ سنة و٤ أشهر.

محمد ابن حبيب:

الإمام اللغوى النسابة أبو جعفر ... د ابن حبيب بن أمية بن عمرو، كان مولى لبنى

العباس بن محمـد، وكانت أمه المدعوة «حبيب» مولاة لهم أيـضا، وكان ابن حبيب من علماء بغـداد بالأنساب والأخـبار واللغة والشـعر والقبـائل، وقد جـمع قطعة من أشعار العرب، وتتلمذ لابن الأعرابى وقطرب وأبى عبيدة وأبى اليقظان وغيرهم.

ويقول عنه ياقوت: «ثقة مؤدب» ولكن المرزبانى يقول فيه: «كان يغير على كتب الناس، فيدعـيها ويسقط أسمـاءهم» ويقول عنه ثعلب: «حضرتُ مـجلسيه فلم يُمْلِ، وكان حافظا صدوقا».

وذكر ابن النديم فى الفـهرست ٣١ كتابا له لم يرد فـيها ذكر ديـوان سراقة، وإن كان يذكـر أنه جمع شعـر الأزد، فلعل سراقة كان مـعهم، ولم تعرف دائرة المـعارف الإسلاميـة وجود ديوان سراقة، ولذلك قالت عنه (عن ابن حـبيب) «ولم يصل إلينا من مؤلفاته الكثيرة إلا رسالة فى أوجه الشبه والخلاف بين أسماء القبائل العربية».

وتوفى ابن حبيب بسر من رأى فى شهر ذى الحجة عام ٢٤٥هـ = ٨٥٩م.

السـكرى:

أبو سعـيد الحـسن بن الحسين بن عـبد الله بن عـبد الرحمن بـن العلاء بن أبى صُفْرة، السكرى النحـوى اللغوى الراوية المُكْثر، وكان راوية البصـريين، وقد جمع أشعـار جماعة مـن الفحول، كامـرئ القيس وزهير وغـيرهما، وأخـذ عن أبى حاتم السجـستانى والعـباس بن الفرج الرياشى، ومـحمد ابن حـبيب، ويحيى بن مـعين، والحارث بن أبى أسامة، وأحـمد بن الحارث الخراز وغيرهم، وأخـذ عنه محمد بن عبد الملك التاريخى.

وكان السكرى ثقة حاذقا حسن المعرفـة باللغة والأنساب والأيام، إذا جمع جمعا فهو الغاية فى الاستيعاب؛ وذكر له الفـهرست نحوا من أربعين كتابا لم يرد فيها ديوان سراقة.

وقد ولد عام ٢١٢هـ وتوفى سنة ٢٧٥ وقيل ٢٩٠هـ.

النمـرى:

أبو عبد الله الحسين بن على بن عبد الله النَّمَرى، المعروف بابن الأعرج، تلقى العلم على أبى رياش، وقد كان أديبا شاعرا لغـويا، صنف عدة كتب مثل كتاب «اللمع» فى

اللغة، و «الخيل» و «أسماء الفضة والذهب» و «معـانى الحماسة» وقد عاش بالبصرة وتوفى عام ٣٨٥هـ.

أبو أحمـــــد:

أما أبو أحمد هذا فلم أعرفه يقينا، إذ يكنى بهـذه الكنية عدد كبير، ولا يوجد ما يرجح أحدهم على الآخرين، وأشـهر من يكنى بها الحسن بن عبد الله بـن سعيد بن زيد بن حكيم العسكرى اللغوى العلامة، كـان من الأئمة المذكورين فى التصرف فى أنواع العلوم، والتبحر فى فنون الفهوم؛ سمع ببغـداد والبصرة وأصبهان وغيرها، من أبى القاسم البـغوى وأبى بكر بن دريد ونفطويه وغـيرهم، وأكثـر وبالغ فى الكتابة، واشتهر فى الآفاق بالدراية والإتقان، وانتـهت إليه رياسة التحديث والإملاء للآداب، والتدريس بقطر خوزسـتان؛ ورحل إليه الأجلاء، روى عنه أبو نعيم الأصـبهانى وأبو سعد المـالينى، وصنف «صناعة الشعـراء» و «التصحيف» و «المختـلف والمؤتلف» وغيرها.

ولد أبو أحمد العسكرى يوم الخميس لست عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاث وتسعين ومئـتين، وتوفى يوم الجمعة لسبع خلون من ذى الحجـة سنة اثنتين وثمانين وثلاث مئة.

أبـو ريـــــاش:

أحمـد بن إبراهيم، كمـا جاء فى ياقـوت، ولكن السيـوطى أتى به فيمـن يسمى «إبراهيم» ودعـاه «إبراهيم بن أبى هاشم أحـمـد أبو رياش» ينسب إلى شـيبـان وإلى قيس، وهو من اليـماه، وقد كـان جنديا فى أول أمره مع المِسْـمَعىِّ، ثم انقطع إلى العلم والشعر.

وقال عنه التنوخى فى كتـابه: «نَشْوار المحاضرة»: «كان من حـفاظ اللغة، ومن رواة الأدب» ووصفه الثعـالبى فى «اليتيمة» بقوله: «كان باقـعة فى حفظ أيام العرب، وأنسابـها، وأشعـارها؛ غاية بل آيـة فى هذّ دواوينها، وسـرد أخبـارها، مع فصـاحة وبيان، وإعـراب وإتقان» ويقال: «إنه كـان يحفظ خمســة آلاف ورقة لغة، وعـشرين

ألف بيت شعر إلا أن أبا محمد المافروخيّ أبرَّ عليه» وكانت بينهما مساجلات فى الحفظ والرواية.

وقد حكى أبو العلاء المعرى فى وصفه فى كتابه «الرياش المصطنَعِيّ» «أن أبا رياش كان طويل الشخص، جهير الصوت، يتكلم بكلام البادية، ويظهر أنه على مذهب الزيدية...».

واتصل أبو رياش بالوزير المهلبى، وتوفى عام ٣٣٩هـ كما جاء فى ياقوت، أو ٣٤٩هـ كما يقول السيوطى فى البغية.

منهجى فى تحقيق الديوان

أريد أن أتكلم هنا على بعض الخطوات التى خطوتها فى إخراج الديوان فى صورته هذه.

أول شىء حِرتُ فيه هو التعليقات: أأسير فى إثباتها على طريقة «ص» أم على طريقة «ش»؟ وبعبارة أوضح: أأجعل بعضها فى صلب الديوان، وبعضها الآخر فى الهامش؟ وأخيرا ارتحت إلى طريقة «ش» فدونتها بين قوسين صغيرين « » فى الحاشية، رامزا إليها بالحرف «هـ» لأنى وجدتها مختلطة، لا تمتاز تعليقات راو عن تعليقات آخر، كما وجدت الرمز إليها يكفينى مئونة وضعها حيث اخترت، حتى تكون الأبيات متتالية متسلسلة، لا تقوم بينها فواصل غريبة، ولو كانت هذه الفواصل شرحا لها، وتعليقا عليها.

ويسوقنى الكلام على التعليقات إلى الحديث عن تعليقاتى، فأذكر أنى أحببت أن أعرف القارئ بالرجال المذكورين فى الديوان، فأتيت لهم بترجمات مختصرة، أرجو أن تكون كافية، وقد تجاهلت بعض الرجال لبروزهم وشهرتهم، أما غير الترجمة فلم أفعل شيئا إلا شرح بعض الأبيات راجيا أن أكون موفقا فى ذلك الشرح.

وتركت الديوان فلم أدخل عليه تغييرا فى نظامه، ولكنى تسهيلا للقارئ ألحقت به سبعة فهارس، هى: فهرس الأعلام، وفهرس الموضوعات، وفهرس تاريخى لتأريخ القصائد، وفهرس الشعراء، وفهرس القبائل، وفهرس الأماكن، وفهرس القوافى والأوزان، وأخص فهرسين بالحديث: فهرس القبائل، وفهرس التاريخ.

أما الأول فقد أدخلت فيه الخوارج والشيعة والأمويين والديلم، وهم ليسوا قبائل، وإنما أحزاب أو أجناس، ولكنى لاحظت فيهمَ الجماعة، فلم أذكرهم فى فهرس الأعلام، ووجدت أنهم إلى القبائل أقرب منهم إلى الأفراد.

أما الفهرس التاريخى فإنى رتبته بحسب ما جاء فى القصائد أو الديوان من إشارات تاريخية، فرجعت إلى الطبرى والكامل والبداية والنهاية والمنتظم، فاستنبطت منها تاريخ وقوع هذه الحوادث، وأرَّخت بها القصائد، وقد يكون فى ذلك بعض الخطأ، لأن الشاعر قد يتناول الحادث القديم، وينظم فيه القصائد، ولكن رجحت أن سراقة نظم قصائده بعد وقوع الحوادث مباشرة، أو بزمن قليل، وذلك لأهمية الحوادث وتأثيرها، ذلك الأمر الذى يُملى على الشاعر نظم قصائده فورا، وكذلك لامتلاء حياة سراقة بالحوادث مما لا يترك له فراغا، يشغل نفسه فيه بالكتابة أو الحديث عن الحوادث الماضية، وهو لو تحدث عن الماضى فإنما يتحدث عنه كذكرى أثارتها الحوادث الراهنة، كما يظهر ذلك فى بعض مراثيه.

وقد وجدت بعض المقطوعات والقصائد التى لم أستطع تأريخها، لعدم ورود إشارات تاريخية بها، فأوردتها آخر الفهرس دون ترتيب ودون تأريخ، وقد ورد فى قصة الأغانى اسم حسان بن كيسان، وأنه كان والى الكوفة فى ذلك العهد، فبحثت كثيرا عنه، فلم أجد له ذكرا؛ وأرجح أنه كان زمن بشر بن مروان أو الحجاج، لأنهما كانا يُنيبان ولاة عنهما على الكوفة إذا خرجا منها، فتكون تلك المقطوعة قد قيلت بين عامى ٧١ و ٧٩هـ.

خاتمـــة:

قلت: إن ديوان سراقة لم ينشر فى طبعة مستقلة قبل هذه الطبعة، ولكن «س.م. حسين الهندى» قد نشره فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بلندن فى جزأى يوليـة وأكتوبر من سنة ١٩٣٦ نقلا عن مخطوطة بالمكتبة الأهلية فى فينا، وهى منقولة عن نسخة ألمانية، نُقلت عن نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة: المحفوظة برقم ٦١٤ أدب، وعن النسخة ٦ش أدب بدار الكتب المصرية أيضا، وعن نسخة عاشر أفندى بالقسطنطينية.

المراجع

مراجع تحقيق الشعر

ابن جرير الطبرى	:	تاريخ الأمم والملوك، ورمزت إليه بالحرف «ط»
ابن الأثير	:	الكامل » » » «ك»
ابن كثير	:	البداية والنهاية » » » «ب»
ابن عساكر	:	تاريخ دمشق » » » «س»
الآمدى	:	المؤتلف والمختلف » » » « م »
ياقوت	:	معجم البلدان » » » «ى»
ابن قتيبة	:	عيون الأخبار » » » «ع»
أبو الفرج الأصبهانى	:	الأغانى » » » «غ»
الزجاجى	:	الأمالى » » » « ز »
ابن عبد ربه	:	العقد الفريد » » » «ف»

مراجع المقدمة

ديوان امرئ القيس

» علقمة الفحل

» طفيل الغنوى

» سلامة بن جندل

المعلقات

شعر النابغة الجعدى

شعر أبى دواد الإيادى

شرح الشافية للرضى

المحاسن والأضداد للجاحظ

النوادر لأبى زيد الأنصارى

معجم الأدباء لياقوت

نزهة الألبا لابن الأنبارى

بغية الوعاة للسيوطى

الفهرست لابن النديم

ديوان
سُراقة البارقي

بسم الله الرحمن الرحيم

ويه نستعين[١]

قال[٢] محمد ابن حبيب:

(١) زيادة عن ش.

(٢) ورد هذا الخبر فى كتب التاريخ مفصلا تفصيلا شافيا، يختلف بعض الاختلاف عن رواية ابن حبيب، وخاصة فى أسماء قواد الأرباع، فآثرت أن أورده هنا، كى أوضح جو المعركة التى أنتجت هذه القصيدة، وعدة قصائد أخرى من شعر سراقة، وهاك ما ورد فى كتاب أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، وقد ذكره فى حوادث عام ٧٤هـ وأكمله فى عام ٧٥هـ، قال:

ولما صار بشر بالبصرة كتب عبد الملك إليه... «أما بعد، فابعث المهلَّب فى أهل مصره إلى الأزارقة، ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم، وأولى الفضل والتجربة منهم، فإنه أعرف بهم، وخَلِّه ورأيه فى الحرب، فإنى أوثَق شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين. وابعث من أهل الكوفة بعثا كثيفا، وابعث عليهم رجلا معروفا، شريفا حسيبا صليبا، يُعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب. ثم أنهِضْ إليهم أهل المصرَيْن، فليتَّبعوهم أى وجه ما توجهوا، حتى يبيدهم الله ويستأصلهم؛ والسلام عليك».

وشق على بشر أن إمرة المُهلب جاءت من قِبَل عبد الملك، فلا يستطيع أن يبعث غيره، فأوغرت صدره عليه، كأنه كان إليه ذنب. ودعا بشر بن مروان عبد الرحمن ابن مخنف، قال: دعانى بشر بن مروان، فقال لى: إنك عرفت منزلتك منى، وأثَرتَك عندى، وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش، للذى عرفت من جزئك وغنائك، وشرفك وبأسك، فكن عند أحسن ظنى بك، انظر هذا الكذا كذا (يقع فى المهلب) فاستبدَّ عليه بالأمر، ولا تقبلنَّ له مشورة ولا رأيا، وتنقصه وقصر به، فترك أن يوصينى بالجند، وقتال العدو، والنظر لأهل الإسلام، وأقبل يغرينى بابن عمى، كأنى من السفهاء، أو ممن =

= يُستَصبَى ويُستجهل، ما رأيت شيخا مثلى فى مثل هيئتى ومنزلتى، طُمع منه فى مثل ما طمع فيه هذا الغلام منى، شبَّ عمرو عن الطوق، ولما رأى أنى لستُ بالنشيط إلى جوابه قال لى: ما لك؟ قلت: أصلحك الله، وهل يسعنى إلا إنفاذ أمرك فى كل ما أحببتُ وكرهتُ، قال: امضِ راشدا... فودعته وخرجت من عنده.

وخرج المهلب بأهل البصرة حتى نزل رامهرمز، فلقى بها الخوارج، فخندق عليه، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف بأهل الكوفة، على رُبْع أهل المدينة، معه بشر بن جرير، وعلى رُبع تميم وهمدان محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس. وعلى ربع كندة وربيعة إسحاق بن محمد بن الأشعث، وعلى ربع مذحج وأسد زَحْر بن قيس، فأقبل عبد الرحمن حتى نزل من المهلب على ميل أو ميل ونصف، حيث تراءى العسكران برامهرمز، فلم يلبث الناس إلا عشرا حتى أتاهم نعى بشر بن مروان، وتوفى بالبصرة، فارفض ناس كثير من أهل البصرة وأهل الكوفة».

ثم يقول الطبرى فى حوادث عام ٧٥هـ، بعد أن يذكر ولاية الحجاج للعراق، وإرجاعه المنفضين عن المهلب وابن مخنف:

«ناهض المهلب وابن مخنف الأزارقة برامهزمز... وأجلَوْهم... من غير قتال شديد، ولكنهم زحفوا إليهم حتى أزالوهم، وخرج القوم كأنهم على حامية، حتى نزلوا سابور، بأرض يقال لها كازَرُون، وسار المهلب وعبد الرحمن بن مخنف حتى نزلوا بهم... فخندق المهلب عليه.

فذكر أهل البصرة أن المهلب قال لعبد الرحمن بن مخنف: إنْ رأيت أن تخندق عليك فافعل؛ وأن أصحاب عبد الرحمن أبوا عليه، وقالوا: إنما خندقنا سيوفنا؛ وأن الخوارج زحفوا إلى المهلب ليلا ليُبيتوه، فوجدوه قد أخذ حِذره، فمالوا نحو عبد الرحمن بن مخنف، فوجدوه لم يخندق، فقاتلوه، فانهزم عنه أصحابه، فنزل فقاتل فى أناس من أصحابه، فقُتلَ وقُتلوا حوله، فقال شاعرهم:

لِمَن العَسْكر المكلَّلُ بالصَّرْ ... عى فهمْ بين ميِّتٍ وقتيل
فتراهمْ تسفِى الرياحُ عليهمْ ... حاصبَ الرملِ بعد جَرِّ الذُّيول

وأما أهل الكوفة فإنهم ذكروا... (أنهم) اقتتلوا قتالا شديدا، لم يكن بينهم فيما مضى قتال كان أشد منه، وذلك بعد الظهر، فمالت الخوارج بحدها على المهلب بن أبى صفرة، فاضطروه إلى عسكره، فسرحَ إلى عبد الرحمن رجالا من صلحاء الناس، فأتوه فقالوا: =

ذكروا أن بشر بنَ مروان[١] لما بعث عبدَ الرحمن بن مخنف[٢] إلى

= إن المهلب يقول لك: إنما عدونا واحد، وقد ترى ما قد لقى المسلمون، فأمِدّ إخوانك يرحمك الله، فأخذ يمده بالخيل بعد الخيل، والرجال بعد الرجال، فلما كان بعد العصر، ورأت الخوارج ما يجيء من عسكر عبد الرحمن من الخيل والرجال، إلى عسكر المهلب، ظنوا أن قد خفّ أصحابه، فجعلوا خمس كتائب أو ستّا تجاه عسكر المهلب، وانصرفوا بحدهم وجمعهم إلى عبد الرحمن بن مخنف، فلما رآهم قد صمدوا، نزل ونزل معه القراء... ونزل معه من خاصة قومه أحد وسبعون رجلا، وحملت عليهم الخوارج، فقاتلهم قتالا شديدا، ثم إن الناس انكشفوا عنه، فبقى فى عصابة من أهل الصبر ثبتوا معه، وكان ابنه جعفر بن عبد الرحمن فيمن بعثه إلى المهلب، فنادى فى الناس ليتبعوه إلى أبيه، فلم يتبعه إلا ناس قليل، فجاء حتى إذا دنا من أبيه، حالت الخوارج بينه وبين أبيه، فقاتل حتى ارتُثَّته الخوارج، وقاتل عبد الرحمن بن مخنف ومن معه على تل مشرف، حتى ذهب نحوٌ من ثلثى الليل، ثم قتل فى تلك العصابة.

(١) بشر بن مروان الأموى أخو عبد الملك بن مروان، ولى إمرة الكوفة عام ٧١هـ بعد مقتل مصعب بن الزبير، ثم جمعت له البصرة عام ٧٣هـ، وظل واليا على العراقين حتى وفاته عام ٧٤هـ، وكان سمحا جوادا طليق الوجه، يجيز على الشعر بالألوف، مدحه الشعراء، مثل الأخطل وجرير والفرزدق وسراقة، وكان شجاعا اشترك فى موقعة مرج راهط، وقتل خالدَ بنَ حُصين الكلابى، وكان ذا ذوق أدبى، يحب إثارة بعض الشعراء على بعض، فيتراسلون بالأهاجى، ويطرب هو لتلاحيهم، وهو الذى حرض سراقة على جرير.

(٢) عبد الرحمن بن مخنف القائد الأزدى، حارب مع الإمام علىّ هو وأبوه فى موقعة صفين، وقد حارب النعمان بن بشير الصحابى، الذى كان فى صف معاوية، ولما خرج المختار ثار عليه يوم جبانة السبيع، فجُرح، ونُقل إلى زوجته، ثم أرسله بشر بن مروان على رأس جيش الكوفة عام ٧٤هـ ليحارب الخوارج مع المهلب، وأخذ يحاربهم، حتى تمكن منه قطرى بن الفجاءة، فقتله ومن معه قرب كازرون عام ٧٥هـ.

الأزارقة(١) دعاه، فقال له: إن أمير المؤمنين(٢) كتب إلىّ، يأمرنى أن أبعثك إلى الأزارقة، فى مقاتلة(٣) أهل الكوفة، فإذا أتيت المهلب(٤) فانزل منه ناحية، ثم افعل كذا وكذا، فجعل يغريه بالمهلب، وقال له: استبدّ بالأمر عليه، فأنت أشرف منه، فلما خرج عبد الرحمن سأله أصحابه(٥) ما الذى أوصاك به الأمير؟ فقال لهم: ترك(٦) أن [يغرينى](٧) بقتال عدوه وعدوى، وأقبل يغرينى بابن عمى. فسار عبد الرحمن ومعه أصحاب الأرباع(٨): أرباع الكوفة، على

(١) فرقة متطرفة من الخوارج، تنسب إلى نافع بن الأزرق، توجب قتال المسلمين، وتكفر القعدة، كما تدعى أن المسلمين قد كفروا، ولن يتوبوا إلا بالخروج، ولها آراء أخرى كثيرة، تخالف بها المسلمين وبقية الخوارج.

(٢) يريد عبد الملك بن مروان.

(٣) المقاتلة: الجند.

(٤) المهلب بن أبى صُفرة هو الذى وقف للخوارج بالمرصاد، وقد استعان به الشيعة والزبيريون والأمويون لقتالهم، وكان يحاربهم أيضا بابتكار الأحاديث من عنده حتى اشتهر بالكذب، وكان رب أسرة حربية كبيرة، ومن أشجع أولاده: يزيد، والمغيرة، وقد توفى عام ٨٢ هـ.

(٥) هـ: «الناس».

(٦) «ترك» كذا فى ش، وفى ص: «نزل» وهو خطأ ظاهر.

(٧) زيادة عن ش وهى ساقطة من ص، ومكانها فراغ.

(٨) عندما أسست الكوفة قسمت إلى أربعة أرباع، ثم نزلت كل قبيلة مكانا خاصا منها، تسكنه مجتمعة ولا تسكن غيره، ولذلك كانت الكوفة مقسمة تبعا لهذه القبائل، وكانت عندما تخرج لمحاربة أهل البصرة مثلا، تقف أزد الكوفة أمام أزد البصرة، وتميم الكوفة أمام تميم البصرة، وكل قبيلة أمام أختها فى المدينة الأخرى، تقاتلها بنفسها.

رُبع أهل المدينة جريرُ بن عبد الله[١] وعلى ربع تميم[٢] وهمدان عبد الرحمن ابن سعيد بن قيس الهمدانى[٣] وعلى ربع مَذْحج وأسد إبراهيم بن الأشتر النخعى[٤] وعلى ربع ربيعة وكندة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فلما قدم ابن مخنف نزل من المهلب على أربعة أميال، فأتاه المهلب زائرا، فقال له: أنا أعلم بقتال هذا العدو منك، فمُرْ بخندق عليك، وأصحاب أرباعه يسمعون، فقال عبد الرحمن بن محمد [بن][٥] الأشعث لهم: والله [لَهُمْ][٦] أهون علينا من ضَرْطَة الجمل[٧] فلُقب يومئذ «ضرطة الجمل» والأشاعثة يغضبون منها.

---

(١) تذكر كتب التاريخ أنه توفى عام ٥٢ أو ٥٤ هـ، فليس من المعقول إذن أن يحضر هذه الموقعة التى كانت عام ٧٤ أو ٧٥ هـ.

(٢) «تميم» كذا فى ش، ط، وفى ص، «أهل تميم».

(٣) قُتل عام ٦٦ هـ يوم جبانة السبيع.

(٤) توفى عام ٧١ هـ، ومن تواريخ الوفاة نجد أننا أمام أحد ثلاثة أشياء: فإما أن نقول إن المعركة كانت قبل عام ٧٥ هـ والطبرى مخطئ وكذلك كتب التاريخ الأخرى، وإما أنهم لم يتوفوا فى هذه التواريخ، وتكون كتب التاريخ مخطئة أيضا، وإما أن نُخَطِّئَ رواية ابن حبيب وهو الأولى، بدليل أن الطبرى ذكر أسماء أخرى غير التى ذكرها ابن حبيب، فليراجع فيما نقلناه عنه فى صفحة ٣٨.

(٥) زيادة واجبة، ساقطة من الأصلين.

(٦) زيادة من الطبرى يقتضيها السياق، ساقطة من الأصلين.

(٧) روى الطبرى هذه الحادثة فى حوادث عام ٧٢ هـ، ولم يكن ابن الأشعث تحت إمرة ابن مخنف، وأحببت أن يشاركنى القارئ فى الاطلاع عليها، فأوردتها هنا:

«وكتب عبد الملك إلى بشر بن مروان: «أما بعد، فإنى كتبتُ إلى خالد بن عبد الله آمره بالنهوض إلى الخوارج، فسَرِّحْ إليه خمسة آلاف رجل، وابعث عليهم رجلا من قبلك ترضاه، فإذا قضوا غزاتهم تلك، صرفتهم إلى الرى، فقاتلوا عدوهم، وكانوا فى مسالحهم، وجبوا فيئهم، حتى تأتى عقبهم فتعقبهم، وتبعث آخرين مكانهم» فقطع على أهل =

وقالت امرأة من أهل البصرة، حين انهزم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من الحجاج بن يوسف، تُعيِّره هزيمته:

تركتَ وِلْدتنا تَدْمى نحورهمُ ... وجئتَ منهزمًا يا ضرطةَ الجملِ(١)

فقال أهل الكوفة: خنادقنا أسيافنا، فمكث قَطَرِىُّ بن الفُجاءة(٢) أياما، ثم أتى المهلب فأناخ بخندقه، فقاتله يومه ذلك حتى العصر، وبعث المهلب إلى عبد الرحمن بن مخنف: إن عدونّا واحد، ويدنا واحدة، فأمدنى بمن قِبَلك، فندب عبدُ الرحمن الناس إلى المهلب مع جعفر ابنه، فانتدب معه خمسُ مئة،

= الكوفة خمسة آلاف، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث... وجاء عبد الرحمن بن محمد ببعث أهل الكوفة، حتى وافاهم بالأهواز... ومر المهلب على عبد الرحمن بن محمد ولم يخندق، فقال له: يا بن أخى، ما يمنعك من الخندق؟ فقال: والله، لهم أهون على من ضرطة الجمل، قال: فلا يهونوا عليك يا بن أخى، فإنهم سباع العرب، لا أبرح أو تضربَ عليك خندقا، ففعل، وبلغ الخوارج قول عبد الرحمن بن محمد: «لَهُمْ أهون علىَّ من ضرطة الجمل» فقال شاعرهم:

يا طالبَ الحقِّ لا تستهوَ بالأملِ ... فإنَّ من دونِ ما تهوى مَدى الأجلِ
واعمل لربك واسألْهُ مثوبتهُ ... فإنَّ تقواهُ فاعلم أفضلُ العملِ
واغزُ المخانيثَ فى الماذىِّ مُعْلَمَةً ... كيما تصبِّحَ غدْوا ضرطةَ الجملِ

(١) الولدة: جمع وليد، وفى ش: «نخورهم» بالخاء موضع «نحورهم» بالحاء، وهو خطأ.

(٢) الشاعر القائد الشجاع، انتخبه الأزارقة أميرا لهم بعد مقتل الزبير بن الماحوز عام ٦٨ هـ، وكانت بينه وبين المهلب وقائع شديدة، وفى أواخر أيامه اضطربت عليه الخوارج وانفض كثير منهم من حوله، وقتل عام ٧٩ هـ، وله شعر يمتاز بصدق العاطفة وقوتها، وهو القائل يخاطب نفسه.

أقولُ لها وقد طارتْ شَعاعًا ... من الأبطالِ ويْحكِ لا تُراعى
فإنكِ لو طلبتِ بقاءَ يومٍ ... على الأجلِ الذى لكِ لم تُطاعى

فشدوا على جانب عسكر قطرىّ، فأفرجوا لهم، فدخلوا خندق المهلب، ثم قال قطرىّ، لأصحابه: ميلوا إلى أهل الكوفة، فإنه لا بُقيا لهم بعد من أراه خرج من معسكرهم، فمال إليهم، فقاتلوهم بقية يومهم وليلتهم حتى جنّ الليل، وطلع القمر لسبعٍ بقين من الشهر. وبعث عبد الرحمن بن مخنف إلى المهلب بن أبى صفرة يستمده. فقال بعض الناس: لم يمده برجل، ندب الناس إليه، فقالوا: لا نقوى أن نمده مع ما لقينا من التعب يومنا هذا. وقال آخرون: لا، بل خذلهم عمدا. وأتاهم جعفر بن عبد الرحمن فيمن كان معه من أهل الكوفة وقليل من أهل البصائر من أهل البصرة، فقاتلوهم من ورائهم حتى قُتل وقُتل من[1] معه، وقتل عبد الرحمن وأصحابه.

فقال سراقة بن مرداس البارقى فى ذلك، يرثى عبد الرحمنِ بنَ مخنف، ويذكر خذلان المهلب إياه:

ثوى سيدُ الأزدَيْنِ أزد شَنوءة	وأزد عُمانٍ رهنَ رَمْسٍ بكازر[2]
وقاتلَ حتى ماتَ أكرمَ ميتةٍ	بأبيضَ صافٍ كالعقيقة باترِ[3]
[وصُرِّعَ حولَ التلِّ تحتَ لوائهِ	كِرامُ المساعى مِنْ كرامِ المعاشرِ][4]

(١) زيادة من ش.

(٢) «الأزدين» كذا فى ط، وفى ك: «الأزدابن» وفى ى: «للأزد» وفى ص، ش: «للأسد» و «أزد شنوءة وأزد عمان» كذا بالزاى فى ط، ك، ى، وفى ص، ش: «أسد» بالسين، «ورهن» كذا فى ط، ك، ى، وفى ص، ش: «وهو» والرمس: تراب القبر، وفى «هـ: كازرون» وهى بأرض سابور من فارس.

(٣) «قاتل» كذا فى ص، ش، وفى ط، ك، ى: «ضارب».

(٤) «حول التل وتحت» كذا فى ط، ى، وفى ك: «عن تل وتحت» وهذا البيت زيادة من ط، ك، ى، وساقط من ص، ش.

قَضى نحبهُ يومَ اللقاء ابنُ مخنف　　وأدبرَ عنهُ كلُّ ألْوثَ داثرِ[١]
أمدَّ ولمْ يُمْدَدْ وماتَ مُشمِّرا　　إلى الله لمْ يذهبْ بأثوابِ غادرِ[٢]

* * *

وقال سراقة أيضا يرثيه[٣]:

إن يقتلوكَ أبا حكيمٍ غدرةً　　فلقدْ تشدُّ فتقتلُ الأبطالا[٤]
إنْ يُثكلونَا سَيدا لمُسَوَّدٍ　　ضخمَ الدسيعة ماجدًا مفضالا[٥]
فلمثلُ قتلكَ هدَّ قومكَ كلهمْ　　منْ كانَ يحمِلُ عنهمُ الأثقالا
منْ كانَ يحملُ غُرْمَهمْ ويحوطُهم　　يومًا إذا كانَ الضرابُ نزالا[٦]

(١) «ألوث» كذا فى ط ، ك ، ى، وفى ص ، ش: «ديوث» والألوث: الضعيف، و «داثر» كذا فى ى، والداثر: الهالك، وفى ص ، ش: «دابر» وفى ط ، ك: «غادر».

(٢) ط: «فلم» وباقى النسخ: «ولم» وفى ط ، ك: «فراح» فى موضع «ومات» و «غادر» كذا فى ص، ش ، ى ، ك، وفى ط: «فاجر».

(٣) أورد الطبرى بعض أبيات هذه القصيدة ونسبها لشاعر يسمى «حُميد بن مسلم».

(٤) «غدرة» كذا فى ط ، وفى ص ، ش: «مرة» وفى ط: «وتقتل» موضع «فتقتل».

(٥) ط : «أو» فى موضع «إن» والثُكل: فقدان المرأة ولدها، وكذا الثُكل، و «المسود» كذا فى ط، وفى ص ، ش: «ولسيد» والمعنى سيد ابن سيد أى نسيبٌ ذو نسب عريق وفى ط: «سمح الخليقة» فى موضع «ضخم الدسيعة» وفى هـ: «الدسيعة الخلق، ويقال الجفنة» وهنا لا تكون الدسيعة إلا بمعنى الجفنة أو العطية الجزيلة أو المائدة الكريمة.

(٦) ط: «يكشف» فى موضع «يحمل» و «قتالهم» فى موضع «ويحوطهم» و «القتال» فى موضع «الضراب» ويحوط: يكلأ ويرعى، والضراب: القتال، وفى هـ: «النزال: المنازلة فى الحرب».

أقسمتُ ما نيلتْ مَقاتلُ نفسه ... حتى تسَربَلَ منْ دمٍ سِرْبالا[١]
وتناجزَ الأبطالُ حولَ لوائه ... بالمَشْرَفيَّةِ في الأكفِّ نضالا[٢]
يوماً طويلا ثُمَّ آخرَ ليلهم ... حتى استبانوا في السماء هلالا[٣]
وتفرجت عنهُ الصفوفُ وخيلُهُ ... فهناكَ نالتهُ الرماحُ نهالا[٤]

* * *

وقال سراقة أيضا:

متى ما تَلْقَ بي خيلا تَداعَى ... ودونَ فراقها وجعٌ وموتُ
فلستُ بكارهٍ للقاءِ ربي ... ولا فرحِ الفؤادِ إذا نجوتُ

(١) «نيلت» كذا في ط، وفي ص: «سبلت» وفي ش: «سلبت» ونيلت مقاتله أي أصيب في المواضع التي تسبب الموت عند إصابتها، وفي ط: «تدرع» في موضع «تسربل» وتسربل بمعنى تدرع أي لبس قميصا، والمعنى أن الدم غطاه فكأنه قميص له.

(٢) في ش: «تناحر» بالحاء، وتناجز القوم أي سفك بعضهم دم بعض، وفي ط: «تحت» في موضع «حول» وفي ش: «في المشرفية» وهو خطأ، والمشرفية: السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام، و «نضالا» بالضاد في هـ، وفي ص، ش: «نصالا» بالصاد.

(٣) «ليلهم» كذا في ط، وفي ص ، ش: «ليلة» ولكن رواية ط أولى لأن الموقعة لم تستمر غير يوم، وفي ط «حين» في موضع «حتى» واستبان الهلال: ظهر، واستبانوه: رأوه.

(٤) ط: «تكشفت» في موضع «تفرجت» والروايتان بمعنى واحد، والخيل تكون بمعنى الفُرسان أيضًا، «نهالا» كذا في نسخة مجلة الجمعية الملكية الأسيوية، وفي الأصول «فمالا» والنهال: المرتوية.

أقاتلُ حينَ أُعْـرفُ وسطَ قومى | وأستحيى الكرامَ إذا نَـبَوْتُ(١)
وأصبـرُ فى أمور قـدْ عـرتنى | فما جَـزِعَ الفؤادُ وما شكوتُ(٢)
ولستُ بلاطمٍ وجـهَ ابنِ عـمى | وشُلَّ الخَمْسُ منى إنْ نصوتُ(٣)
ولا ألهـو بقَـيْنة أقـربائى | ومـا علمى بـهنَّ إذا قـفوتُ(٤)
كذاكَ نشـأتُ فى قومى صغيرا | وربـونى بـذلـكَ إذْ ربـوتُ(٥)

* * *

وقال سراقة:

لا تنكحنَّ الدهرَ إنْ كـنتَ ناكـحًـا | مُلفـفـةً مـمـا تـضمُّ الدساكـرُ(٦)
ونُبِّئْـتَـهَـا تَسْرى إذا الليلُ جنهَـا | بجوخى وهلْ تسرى بجُوخى الحرائرُ(٧)

---

(١) هـ: «يقول: إذا كانت منى نَبْوة فكلمنى كريم استحييته، ويكون أيضا نبا به الزمان، وقلَّ ماله، فنزل به ضيف، فاستحيا من رده».

(٢) عرا: أصاب، وفى ش: «لا» فى موضع «ما».

(٣) اللطم: الضرب على الوجه بباطن الكف، والخمس: أصابع اليد، ويقصد اليد ذاتها، وفى هـ: «نصوتُ: أخذت بناصيته».

(٤) القينة: الأمة مغنية كانت أو غير مغنية، وفى هـ: «قفوت: أى مضيت».

(٥) هـ: «من التربية».

(٦) «ملففة» كـذا فى ش، وفى ص: «ملفقة» وملفـفة أى مستترة محتشمة، أى لا تتزوج من النساء المتحشمات فى القرى اللاتى يسرْن بجوخى ليلا، والدساكر: القرى، وتطلق على القصر الذى حوله بعض البيوت.

(٧) سرى يسرى سُرى وأسرى أى سار ليـلا، وجنَّها الليل: سترها، وجوخى: بلد بالعراق تسقى من نهر جوخى.

لهـا مِـغْـزلٌ حـنَّانُ حـيـنَ تُديرهُ ومنْ كامخِ الفرْهى جِرارٌ حوادرُ(١)

* * *

وقال سراقة:

مـجـالسـةُ السـفـيـه سـفـاهُ رأى ومن حلـم مـجـالسـةُ الحـليم
فـإنكَ والقـرينَ مـعًـا سـواءٌ كـمـا قـدَّ الأديمُ عـلى الأديمِ(٢)

* * *

وقال سراقة يهجو جرير بن الخَطَفى(٣):

لعَـمْـركَ إنى فى الحـيـاة لخـائفٌ لبشرٍ على أنْ لستُ مُـتَّركا ذَحْلا(٤)
إذا كـانَ قلبى للخليـفـة ناصـحًـا ووجهُ الأمير حينَ أحضرُهُ سهلا(٥)
تهضَّمْتُ أعدائى وجاشتْ مَراجلى تخالُ القُمامَ تحـتهَا حَطَبًا جَزْلا(٦)

---

(١) الشطر الأول كذا فى هـ، وفى ص ، ش: «لها مغـزل أعيا إذا ما تديره» والروايتان تريدان أنها لا تعرف أن تعمل، وحنان: مصوِّت، والكامخ: نـوع من الطعام الشبيه بالسلاطة من المشهـيات، وفى هـ: «الفرْهى: الكبر، وحـوادر: عظام» يريد أنها تكثر من المشـهيات، لتأكل كثيرا، فيمتلئ جسدها وتسمن.

(٢) قد: قطع، والأديم: الجلد، وفى ص ، ش: «الأديم من الأديم» وهو تحريف.

(٣) انظر سبب الهجاء بينهما فى المقدمة.

(٤) مترك: تارك، والذحل: الثأر.

(٥) الخليفـة هو عبد الملك بـن مروان، والأمير هو بـشر بن مروان، والوجـه السهل: الطلق المنبسط الأسارير.

(٦) تهضم: ظلم، وجاش: غلى واضطرب، وفى هـ: «القمام صـغار الحطب» والمعاجم تقول إنه الكناسة، وفى ص ، ش: «جرلا» بالراء، تحريف.

فـإن أهجُ يربوعًـا فـإنيَ لا أرى — لشيخهمُ الأقصى على ناشئ فضلا[١]
صغـارٌ مقـاريهمْ، عظامٌ جُعـورُهمْ — بطاءٌ إلى الداعى إذا لمْ يكنْ أكلا[٢]
قـبَـيِّلةٌ لا يدركـونَ بتبـلهمْ — ولا يسبقـونَ الدهرَ مُطلبًا تَبْلاَ[٣]
سـواءٌ كأسـنان الحمـارِ فـلا ترى — لذى شيبـة منهم على ناشئ فضلا
لعـمرى لقـدْ باعَ الفـرزدقُ نفسـهُ — بوَكْسٍ وجارَى لا كفيا ولا فحلا[٤]

* * *

وقال أيضا يهجو جريرا:

لمنِ الديـارُ كـأنهـنَّ سُطـورُ — قـفـرٌ عـفـتْـهُ روامسٌ ودهورُ
تخـشى ربـيـعـةُ أنْ أُلـمَّ بدارهَا — وكـأننى بطلابهـا مـأمـورُ[٥]
طارتْ عُـقـابى طَيْـرةً فـتحيـرتْ — وحـمتْ بَوَازِ صيـدَهَا وصـقـورُ
[يا بِشْـرُ حقَّ لوجـهكَ التـبـشيـرُ — هلاَّ غـضـبتَ لنَا وأنتَ أميـرُ][٦]

---

(١) يربوع: رهط جرير، وفى ش: «فإننى» بدلا من: «فإنى».

(٢) المقارى: القـدور والقصاع، أى هم بخلاء، والجـعور: الأدبار، أى هم شرهون وفى هـ: «يقول: هم أصحاب بطون».

(٣) التبل: الثأر، والمطلب: الطالب، يصـفهم بالضعف فإن كان لهم ثار لم يستطيعوا الأخذ به، وإن كان لأحد عندهم ثار لم يستطيعوا الإفلات منه.

(٤) الوكس: النقص، وجاراه: جرى معه، أى سابقه ونافسه، والكفى: الكفء.

(٥) ص ، ش: «أخشى» والمعنى لا يتضح إلا بالتغيير الذى أحدثته، والطلاب: الطلب.

(٦) هذا البيت من قـصيدة جـرير التى ردَّ بها على سراقـة، وإنى موردها هنا، للمـضاهاة بين القصيدتين:

يا صـاحـبىَّ هل الصـبـاحُ مـنيـرُ — أمْ هلْ للـوم عـواذلى تفـتـيـرُ
أنى تكـلف بالغـمـيم حـاجـةً — نهيـا حـمـامـةَ دونهُ وحَـفـيـرُ =

=
عـادات قلبك حين خفَّ به الهوى ... لولا تُسَكِّنهُ لكادَ يطيرُ
إن العواذل لم يجدنَ كوجْدنا ... فلهنَّ منكَ تعبُّد وزفيرُ
ينهيْنَ من علَق الهوى بفؤاده ... حتى استُبينَ بسمعه توقيرُ
ليتَ الزمانَ لنا يعودُ بيُسره ... إن اليسيرَ بذا الزمانِ عسيرُ
يا قلب هلْ لكَ فى العزاء فإنه ... قد عِيلَ صبرُك والكريمُ صبورُ
ولقد عجبتُ من الوُشاةِ كأنهمْ ... بالبُغضِ نحوَك والعداوة عُورُ
وكتمتُ سرك فى الفؤادِ مُجَمْجِمًا ... إنَّ الكتومَ لسرِّه لجديرُ
فسقى ديارك حيث كنت مجلجلٌ ... هَزِجٌ يُرِنُّ على الديارِ مَطيرُ
ولقد ذكرتك فى اليمامةِ ذكْرة ... إن المحبَّ لمنْ يحبُّ ذَكُورُ
والعِيسُ مُنْعلة السريح من الوجى ... وكأنهنّ من الهواجرِ عورُ
يا بِشرُ حُقَّ لوجهك التبشيرُ ... هلاَّ غضبتَ لنا وأنت أميرُ
يا بشر إنك لم تزلْ فى نَعْمَةٍ ... يأتيكَ من قِبَلِ الإله بشيرُ
بشرٌ أبو مروانَ إن عاسَرْتَه ... عسرٌ وعند يساره ميسورُ
قد كانَ حقك أن تقولَ لبارقٍ ... يا آل بارقَ فيمَ سُبَّ جريرُ
إن الكريمةَ ينصرُ الكرمَ ابنُها ... وابنُ اللئيمة للّئام نَصورُ
لا يدخُلُنَّ عليك إنَّ دخولهمْ ... رجسٌ وإن خروجهم تطهيرُ
أمسى سراقةُ قد عوى لشقائه ... خطبٌ وأمّك يا سراقَ يسيرُ
أسراقَ قد علمتْ معدٌّ أننى ... قِدْمًا إذا كُره الخياضُ جَسورُ
أسراق إنك قد غشيتَ ببارقٍ ... أمرًا مَطالعُه عليك وُعُورُ
يا آل بارقَ لو تقدَّم ناصحٌ ... للبارقىِّ فإنه مغرورُ
كالسامرىِّ غداةَ ضلَّ بقومه ... والعجل يُعْكف حوله ويَخورُ
إنى بنى لى من يزيدُ بناؤه ... طولا وباعُك يا سراقَ قصيرُ
=

حَـرِّرْ كليبًـا إنَّ خيـرَ صنيعـةٍ   يومَ الحسابِ العِتْقُ والتحريرُ(١)

= لو كنتَ تعلمُ مـا جـهلتَ فـوارسى   أيامَ طخـفـةَ والدمـاءُ تـمـورُ
هـلاَّ بذى نـجَـبٍ علـمـتَ بلاءنـا   أو يومَ أصـعـدَ بالنِّـسـار بَجـيـرُ
أبصـرتَ قَـيْنَ بنى قُـفَيْـرةَ مُـحْلبًـا   أسـراقَ ليس لـبـارقَ التـخـيـيـرُ
إن الفـرزدقَ قـد أصيبَ بسـهـمـه   فـضـغـا وأسـلمَ تغلبَ الخـنزيرُ
قـد كـان فى كلـبٍ يُخـاف شـذاته   مِنِّـى ومـا لـقى الـغُـواةَ نـذيرُ
أسـراقَ إنك قـد تُركتَ مُـخـلَّفًـا   وغـبـارُ عِـشْـيَـرِها عليك يثـورُ
وعلِقْـتَ فى مَـرَسٍ يمـدُّ قـرينه   حـتى التـوى بك مُحـصَـد مشـزورُ
لحـصـادُ بارقَ كـان أهونَ ضَيْـعـةٍ   والمـخـلبـان ودونك المـنحـورُ
من مُـخـدر قطـعَ الطريقَ بلَـعْلَعٍ   تَهْـوِى مـخـالبـه مـعـا فـيـسـورُ
تُؤتَى الكـرامُ مُـهـورَهن سـيـاقـة   ونسـاء بارق مـا لـهن مـهـورُ
إن المـلامـةَ والمـذلةَ فـاعلـمـوا   قـدرٌ لأولِ بارقٍ مـقـدورُ
أكـسحتَ باستك للفَـخـارِ وبارقٌ   شـيخـان: أعـمى مُـقْعَـدٌ وضـريرُ
وإذا انتـسـبتَ إلى شنـوءةَ تدَّعى   قـالوا ادعـاءُ أبـى سـراقـة زورُ
إنى بـنى لى زاخـرٌ من خِـنْدِفٍ   للـمُلْك فـيـه منابر وسـريرُ
أسـراقَ إنك لو تفـاضلُ خِندِفًـا   بَتَّـقَتْ عليك مـن الفُـراتِ بحـورُ
أسـراقَ إنـك لا نزارًا نـلتُـمُ   والحىُّ مـن يَمنٍ عليك نَصـيـرُ
أسـراقَ إن لنا العـراقَ ونجـدَهُ   والغـورَ ويلَ أبيك حـين نغـورُ
أرجَـا سـراقـةُ أن يفـاضلَ خندفًـا   وأبو سـراقـةَ فى الحـصى مكثـورُ

(١) «العتق» كـذا فى س ، وفى ص، ش ، ك ، م: الصوم، وعليـه يكون المعـنى: أن جزاء الصوم وتحرير الرقاب لا يعدله جزاء عند الله.

هـب لـى ولاهـمْ أوْ لأدنـى دارمِ ... إنى وربى إنْ فـعلتَ شـكورُ(١)
اضربْ عليـهمْ فى الجواعرِ حَلْقةً ... تبـقى فـإنَّ إبـاقـهمْ مـحْـذورُ(٢)
مـا يطْلُعــونَ معَ الـكرامِ ثنيَّــةً ... ولهمْ مـنازلُ دونَ ذاكَ وُعـورُ(٣)
أبلغْ تميـمـا غـثَّهَـا وسـمـينَهَـا ... والحُكْمُ يقـصـدُ مرَّةً ويجُـورُ(٤)
أنَّ الفــرزدقَ برَّزتْ حـلبـاتهُ ... عفـوا وغُودرَ فى الغبـارِ جريرُ(٥)
مَـا كانَ أولَ مـحْـمَـرٍ عثَـرتْ به ... أنســابهُ إنَّ الـلئـيمَ عَــثـورُ(٦)
[ذهبَ الفرزدقُ بالفضـائلِ والعُلا ... وابنُ المَراغة مُخْلَفٌ مـحسورُ](٧)
هذَا قــضـاءُ البـارقـىِّ وإننى ... بالمَـيْلِ فى مـيـزانهمْ لَبَـصيـرُ(٨)

* * *

(١) هـ: «ولاهم: أن يكونوا مواليه، وإنما يعيرهم أنهم عبيد» ودارم: قبيلة الفرزدق.

(٢) ينصحه بوشمهم مثل الإبل، ليعرفوا عندما يفرون، والإباق: فرار العبد.

(٣) الثنية: الطريق فى الجبل، وطلاَّع الثنايا: سام لمعالى الأمور.

(٤) تميم: قبـيلة جرير والفرزدق، وفى س: «عنها» بدلا من «غثهـا» تحريف، و «الحكم» كذا فى ش، غ وفى ص: «والحلم» وفى س: «والقول» ويقـصد: يعدل، أن يذهب مستقـيما، ويجور: يظلم أو ينحرف.

(٥) «حلبـاته» كذا فـى س، ورواية أبى رياش فى هـ: «أعـراقه» وكـذا فى غـ، وفى ص ، ش «حلابه» والحلبـات: جماعـات الخيل، واحدها حَلْبة، وفى غـ: «سبـقا وخلف» بدلا من «عفوا وغودر».

(٦) غـ: «كنت» بدلا من «كان» و «قعدت» بدلا من «عثرت» و «مسعاته» بدلا من «أنسابه» وفى ش: «آباؤه» وفى هـ: «المـحمـر: الثـقيل من الـدواب؛ الثقـيل الصـدر» وفى المعـاجم: المحمر: اللئيم.

(٧) هذا البيت زيادة من غـ، وساقط من الأصلين.

(٨)س: «القضاء» فى موضع «قـضاء» وفى غـ: «إنه» فى موضع «إننى» فى س: «بالمثل» فى =

وقال سراقة حين فسد ما بينه وبين الفرزدق:

قـد كنت أحسبُ يا بن قـين مجـاشع   أنْ قـد خـصـاك فـلا تغـطُّ جـريرُ[(١)]

ولقـدْ علمتَ على تبـاغـيكَ الخنَا   أنَّ الخـصـىَّ إذا اسـتُـفـزَّ ذَعـورُ[(٢)]

أنَّ الخـصـىَّ يشـولُ حـينَ يرومـهُ   قَـرْمٌ قُـراسِـيَـةُ اللقـاءِ غـيـورُ[(٣)]

* * *

وقال سراقة:

لا تطلـبن فـتـاةً منْ وسـامـتـهـا   ما لمْ [يوافقْكَ] منها الدينُ والخُلقُ[(٤)]

والرفقُ يجمعُ أهلَ البيتِ ما اجتمعوا   وقـدْ يشقُّ على أصـحـابه الخُـرُقُ[(٥)]

* * *

= موضع «بالميل» وهو تصحيف، وفى هـ: «بخطه: أنسابهم، وتحتها كلمة ميزانهم» وفى غـ: «ميزانكم» وفى س: «لـجدير» فى موضع «لبصيـر» والمعنى أن هذا هو حكمى، وهو صادر عن علم بالراجح منهما، أى بذى النسب العريق، لا عن جهل بهما.

(١) القين: الحداد، والعبد أيضا، ومجاشع: رهط الفرزدق، والغطيط: صوت النائم، يريد أن جريرا خصاك، فـلا يمكنك أن تخرج صوتا، أو تقول شعرا، لأن جـريرا قد تفوق عليك كل التفوق.

(٢) بَغَى الضـالة يبغـيها: أى طـلبها، والخـنا: الفحش، «واسـتفز» كـذا فى ش، وفى ص: «استقر» وذعور: جبان.

(٣) يشول: يرفع ذنبه موليا هاربا، ويروم: يطلب ويبغى، والقـرم: السيد المكرم، والقراسية: الضخم الشديد.

(٤) هـ: «لا تُمْسِيَنَّ» فى موضـع «لا تطلـبن» و «وسـامتهـا» كذا فى ش، وفى ص: «مسامتها» و «يوافقك» كذا فى ش، وفى ص: «يواقفك».

(٥) ش: «فاجتمعوا» فى موضع «ما اجتمعوا».

وقال سراقة[1]:

ألا يَا لَقَـوْمى لـلهـمـوم الطوارق	وللحدث الجائى بإحْدَى المضايق[2]
ومَـهْـلك غطْريفَـيْـن كـانَا عـمـادنَا	منَ الذائدينَ المُـقْدمـينَ الأصادق[3]
سـمـعتُ فَـهـدَّ الـرُّكْنَ منى صـوارخٌ	وقدْ غورَّتْ أولى الـنجوم الخوافق[4]
بأسـر حُـمـاة يـالهَـا مـنْ رزيَّة	إذا الحربُ أبْدَتْ عن خدام العواتق[5]
ومـصـرع مـرداسٍ على حُرٍّ وجـهـه	وصُحْـبته تحتَ السيـوف البوارق[6]

(١) ذكر الطبرى فى حوادث عام ٦٨ سبب هذه القصيدة، قال: «إن مصعب بن الزبير كان بعث أبا بكر بن مخنف على استان العال، فلما قدم الحارث بن أبى ربيعة أقصاه، ثم أمَّره بعد ذلك على عمله السنة الثانية. فلما قدمت الخوارج المدائن سرحوا إليه عصابة منهم، عليها صالح بن مخراق، فلقيه بالكرخ، فقاتله ساعة، ثم تنازلوا؛ فنزل أبو بكر ونزلت الخوارج، فقتل أبو بكر ويسار مولاه وعبد الرحمن بن أبى جعال ورجل من قومه، وانهزم سائر أصحابه، فقال سراقة بن مرداس البارقى فى هذه القصيدة.

(٢) فى جميع النسخ «لقوم» الطوارق: المصائب التى تأتى ليلا، «والمضايق» كذا فى ص و ش، وهى جمع مضيق، وهى النوازل التى يعيا بها الإنسان ويضيق، وفى ط: «لصفائق» والصفائق: صوارف الخطوب وحوادثها، الواحدة: صفيقة.

(٣) هـ: «الغطريف: السيد، والبازى غطريف» والذائدون: جمع الذائد، وهو المدافع عن الحقيقة. والمقدمون: كثيرو الإقدام، والأصادق: رجال الشدة، المستميتون فى القتال، هكذا ورد البيت فى ص ، ش، وفى ط:

ومقتل غطريف كريم نجاره ... من المقدمين الذائدين الأصادق

(٤) كذا ورد الشطر الأول فى ص ، ش، وفى ط: «أتانى دوين الخيف قتل ابن مخنف» وغورت: غابت، والخوافق: التى يضطرب نورها.

(٥) هـ: «يقول: إذا الحرب كانت شديدة، وذلك أن النساء إذا خفن على أنفسهن أن يُسْبَيْنَ كشفن عن أسْوُقهنّ، ليزدن فى قتال أزواجهن وقومهن، فيغارون، فيقاتلون إذا رأوا ذلك» ثم صار الكشف عن الساق والخلخال كناية عن اشتداد الحرب.

(٦) البوارق: اللامعة.

فـريـقـين: هذا قَـرْمُ غـامـدَ كُلِّـهـا وهذا الذرى والـفـرعُ منْ آل بارق(١)
فـأُويسْتُ مـمنْ كنتُ آملُ نـفـعـهُ إذَا نُسـتَ منّا كـرامُ الخـلائق(٢)
وثوَّب داعى المـوتِ بالمـوت بـيننَا ودارتْ رحى حرب بقُعْسِ البطارق(٣)
وعـاذَتْ بأيديهَـا النسـاءُ كـأنهـا مـصابيـحُ ليلٍ أو وَميضُ الـعقـائق(٤)
ودرنَا ودار الجـمعُ فى حَـمَس الوغى كـمـا دارَ ولدانٌ لهـواْ بالمـخـارق(٥)
هنالكَ لا يُـزجى حَـيـاهَـا لنفـعـهَـا إياسٌ ولا يُـرْجَى لدفعِ البـوائق(٦)
فـيـا عينُ بـكّى الراتقـينَ أولى النُّهى سمامَ العدى وابكى حـماةَ الحقائق(٧)
وبكّى إياسًـا فـارسَ الحـربِ واندُبى حِماهَا لدى الهـيجاءِ فى كلِّ مأزق(٨)

---

(١) غامد: «حى من اليمن، والذرى: الجانب والكنف والظل.

(٢) «فــأويــســت» كـذا فـى هــ، وفـى ص، ش: «فـيـنـسـت» وفـى هـ: «نـسـفـت: قـلـعـت».

(٣) هـ: «ثوّب: دعا داعى الحرب، والقعس: البطاء البراح» والبطارق: جمع بطريق، وهو قائد الروم، والمراد هنا القائد مطلقا.

(٤) عاذ: لجأ واحتمى.

(٥) حمس الوغى: اشتـداد الحرب، وولدان: جمع وليد، ويقال: لهـى بالشىء، بكسر الهاء، أى لعب به، والمخراق: المنديل يُلفُّ ليُضرب به.

(٦) يزجى: يسوق، وفى ص، ش: «يرجى» تصـحيف، وفى هـ: «بخطه: حبـاها» بالباء بدلا من الياء، والحيا: المطر، وفى هـ: «البوائق: الدواهى».

(٧) الـراتقـون: أى الـذين يصـلحـون الفـاسـد، ويـقـومـون المـعـوج، وأولـو النـهى: ذوو العـقـول الـراجـحـة، وسـمـام: جـمـع سـم، والـحـقـيـقـة: مـا يـجـب عـلـى الإنسـان حمايته.

(٨) الهيجاء: الحرب، والمأزق: الشدة.

فـقدْ فُـجِـعـتْ أزدُ العـراقِ وشـامهَـا ... وأزدُ عـمــان بالطوالِ الغــرانقِ(١)

وأمــــحلَ واديـنَا وأوحـشَ أهلـهُ ... وبُدِّلَ مـنْ فـرْسـانـه بالنـواعقِ(٢)

فـقـد أصبـحتْ نفسى لذاكَ حـزينةً ... وشـابَ لمَا حُـمِّلْتُ منهُ مـفـارقى(٣)

فــمَا أنـا فى طولِ الحـيـاة براغب ... ومـــا أنا إذْ بـانوا لـدهرِ بـوامقِ(٤)

فليتَ المنـايَا أقْصَـدتْنى سهَـامُـهـاَ ... وعـاقتْ أبا بكرٍ بزحـرٍ عـوائقى(٥)

ولمْ تُـبقِ فـى طيـشٍ رعـــاعٍ أذلة ... عواويـرَ فى الهيـجَا غداةَ التـلاحُقِ(٦)

---

(١) ص، ش: «أسـد» بالسين بدلا من الزاى، وفى هـ: «الغرانق: الشـباب السـود الرءوس، يقـول: قـتـلوا شـبابـا، ومعناه: أنهم كـرام ذو سؤدد يقـتلون، لا يمـوتون على فرشـهم شيوخا».

(٢) «بدل» كذا فى ش، وفى ص: «ندل» وهو تصحيـف، وفى هـ: «النواعق: أصحاب الضأن» وهذا جائز، ويجوز أن تكون النواعق الطيور التى تنعق فـى الأماكن الخالية، أى أن الطيور سكنت منازلهم بعد موتهم.

(٣) «منه» كذا فى ط، وفى ص، ش: «منهـا» والمفارق: جمع مـفرق، وهو وسط الرأس، أى الموضع الذى يفرق فيه الشعر.

(٤) بان يبين: نأى وارتحل، والوامق: المحب.

(٥) هـ: «أقصدتنى: قـتلتنى» وفى ص، ش: «عافت» بالفاء بدل القـاف، وهو تصحيف، وفى هـ: «بخطه: ابن جز عوائقى، وفى الحاشية: ابن بحر، وزحر: موضع، قال السكرى كذا كان بخط ابـن حبيب، ثم رجع عـنه وقال: ابن زحر» وزحـر: من قرى مـشرق جـهران باليمن.

(٦) الطيش: النزق والخـفة، ووصفـهم بالمصدر، مـثل رجل عدل، ورجال عـدل، أى عادل وعادلون، والرعاع: السفلة والطغام، والعواوير: جـمع عوار، وهو الضعيف الجبان السريع الفرار، والتلاحق هنا: بمعنى القتال.

إذَا مـــا الخُصَى طارتْ وجـادَ بنفســه | أخو الموت تحتَ اللامعات الخوافق[١]
وحامَى المُحامى عنْ أبيــه وبرَّزتْ | بأحسابهَا أهلُ البيوتِ الشواهق[٢]
وعــرَّدَ أبنـاءُ اللئـــام مــخــافـــةً | وحامى حماةُ الجمعِ عن ذى الوشائق[٣]
وإن أكُ مـفــجـوعًــا حـزينًـا مُـرزَأً | يؤرِّقنى طـيفُ الهـمـــومِ الطوارق[٤]
فـمَـا أنَا بالـوانى ولا عــاجـزِ القُـوى | ولا نَزِقٍ يَخْـشى أذاتى مـرافـقى[٥]
ولا لاطمٍ وجـهَ ابـنِ عـمى سـفــاهةً | ولا أنَا بـالعـــوراءِ يومًــا بنـاطقِ[٦]

وقد أورد الطبرى عدة أبيات بعد البيت:

* سمعتُ فهدَّ الركنَ منى صوارخٌ *

فأوردها هنا كى تكون أجزاء القصيدة مجتمعة فى مكان واحد، قال:

فـــقلتُ تلـقَّـــاكَ الإلـهُ بـرحــمـــة | وصلى عـليكَ اللهُ ربُّ المـــشـــارق
لَحَى اللهُ قــومًــا عـرَّدُوا عنـكَ بكرةً | ولمْ يصـبـروا للامعـات البـوارق[٧]
تولَّوْا فـأجلَوْا بالضـحَى عنْ زعـيـمنَا | وسـيـدنـا فى المـأزقِ المـتـضـايق

(١) «هـ: ارتفعت الخصى من الفرق».

(٢) ش: «بأحشائها» فى موضع «بأحسابها» وهو تصحيف.

(٣) عرد: هرب، والوشيق والوشيقة: اللحم يُغلى إغلاءة ثم يقدد ويحمل فى الأسفار، وهو أبقى قديد يكون، وذو الوشائق: حاملها، أى حامل الطعام عند السفر.

(٤) المرزأ: المصاب دواما، وفى هـ: الطوارق: التى تجىء ليلا.

(٥) الوانى: الضعيف الفاتر.

(٦) هـ: العوراء: الكلمة القبيحة.

(٧) لحى يلحى: لام.

فـأنتَ مـتى مَـا جـئـتنَا فى بيــوتنَا ... سـمعـتَ عويلا منْ عـوان وعـاتق[١]

يبكّينَ مـحـمـودَ الضـريبـةِ مـاجـدًا ... صبورًا لدى الهيـجاءِ عندَ الحقائق[٢]

* * *

وقال سراقة:

إنَّ الأحـــبـــةَ آذنـوا بتــــرحُّلِ ... وبصُـرْمِ حـبلكَ بـاكـرًا فـتـحـمَّلِ[٣]

وأرنَّ حـــاديهـمْ على أخـــراهُمُ ... بصُـلاصلٍ خلـفَ الرِّكـابِ وأزملِ[٤]

ذُلُلا حُـمـولتــهَـا بيـن عـاجلٍ ... خُـضُعًـا سَـوالفـهَا تعـومُ وتعـتلى[٥]

يمشى ويـوجفُ خـدْرُهَا بغَـمـامـةٍ ... صيـفيَّـة فى عـارضٍ متــهللِ[٦]

راب روادفــهَـا ينوءُ بـخَـصْـرهَا ... كَـفَلٌ لهَـا مثلُ النقَـا المتـهـيلِ[٧]

أيـامَ تَـبْـــسِـمُ عـنْ نـقىٍّ لـونُـهُ ... صـافٍ يـزيِّنُه سـواكُ الإسْـحِلِ[٨]

---

(١) العوان: النصف من النساء، والعاتق: الشابة المخدرة التى لم تتزوج.

(٢) الضـريبـة: الطـبيعـة والسـجيـة، والحقـائق: جمـع حـقـيقـة، وهـى مـا يحـق للإنسـان حمايته.

(٣) صـرم: قطع، وفى هـ: كـذا كـان بخط السكرى: «فـتحـمل» بالحـاء، وكـذا بخط ابن الأعرابى».

(٤) رنّ وأرن: صاح، والصلاصل: الحمار المصوت، والأزمل: كل صوت مختلط.

(٥) «ذللا» كذا فى هـ، وفى ص، ش: «ذللٌ» أى أحمالها خـفيفـة بسبب العجلة فى السـفر، والسالفة: مقدم العنق.

(٦) الوجيف: ضرب من السير، وفى هـ: «عارض: سحاب يعترض فى السماء».

(٧) هـ: «الرابى: العظـيم» والكفل: العـجـز، وقـيل الردف، والنقـا: الـكثـيب من الرمل، والمتهيل: المتصبب.

(٨) الإسحل: شجر يستاك به.

ومــعلَّقُ الحَـلْيِ البــهيِّ بمُــشــرق رُؤد كـســالفـة الغــزال الأكـحل(١)
ذهبتْ بـقلبكَ فـى الأنامِ ومـثلُـهَــاً شعفَ الفـؤادَ وَسرَّ عينَ المـجتلى(٢)
وكــأنـهَــا فى الـدارِ يومَ رأيتُــهــا شـمسٌ يظلُّ شـعـاعـهَـا فِي أفكلِ(٣)
تُغْـشى البـصيـرَ إذا تأمَّلَ وجـهـهَـا منْ حُـسنهـا وتقيمُ عـينَ الأحـولِ(٤)
أوْ دُرَّةٌ مـــمـــا تنقَّى غـــائصٌ فـــأســـرَّهَا للتـــاجـــرِ المُـــتـنخِّلِ(٥)
فـأصـابَ حـــاجـتـهُ وقـالَ لنفسـه هلْ يخـفَـينَّ بيــاضُـهَـا فى مـدخلِ(٦)
أوْ بـكرٌ أُدحـىٍّ بـجـــانـب رملـةٍ عـــرضـتْ له دويَّـةٌ لَمْ تُـحْلـلِ(٧)
تلـكَ التى شــقَّـتْ علىَّ فــلا أرىَ أمـثـالهَـا فـارحـلْ ولا تستـقـتلِ(٨)
واعلـمْ بأنـك لا تَنـاسى ذكـــرَهَـا وتذكَّـــرِ الــلذاتِ إنْ لـم تذهـلِ(٩)

---

(١) الرؤد: العنق الحسن الانثناء والالتفات، والأكحل: الذى يعلو جفون عينيه سواد مثل الكحل.

(٢) شعفه الحب يشعفه: أحرق قلبه، وقيل أمرضه، والمجتلى: المتأمل فى جمالها.

(٣) الأفكل: الرعدة والرعشة.

(٤) هـ: «بخطه: طرف الأحول، يقول: إذا أدار الأحول عينه فى وجهها استوى لحسنها».

(٥) المتنخل: المتخير لأفضل الأشياء.

(٦) المعنى أن الغواص قد أصاب طلبته بالحصول على هذه الدرة، واعتقد أن قيمتها لن تخفى على أحد، ولن يقلل إنسان من قيمتها.

(٧) الأدحية: الحفرة، وفى هـ: «بكر الأدحية: البيضة» و «دوية» كذا فى هـ، وفى ص، ش: «بدوية» وفى هـ، أمام لم تحلل: «لم ينزلها أحد» والمعنى أنها تشبه البيضة فى مفازة لم يخترقها إنسان، فلا يمكن الوصول إليها، فهى نفيسة كل النفاسة، نادرة جد الندرة.

(٨) هـ: «بخطه: فامحل، وفوقه: فارحل».

(٩) تناسى: تظهر من نفسك أنك ناس.

لوْ كنتُ منتــهكا يمــينًا برةً	لحلفتُ حلفـةَ صادق متبَهِّلِ(١)
أنى بهَـــا عفٌّ ولستُ بآثم	وإذَا حلفتَ تنجُّدا فَتحلَّلِ(٢)
مَا زادَ منْ وجد علـى وجدى بهَا	إلاَّ ابنُ عـمى يـومَ دارة جُلجُلِ(٣)
عقـرَ المطيةَ إذْ عـرضنَ لعَقْـرهَا	إنَّ الكريـمَ إذَا يُهَـيَّجْ يَخْـتلِ(٤)
وافترَّ يضحكُ مُعجَبًا منْ عقرهَا	وتعجُّبًا منْ رحلهَا المتحمِّلِ(٥)

(١) هـ: «منهك: أى لا أبالى، ومبتهل: داع، ومتبهل: لم أستتر».

(٢) حلف تنجدا: حلف يمينا غليظة.

(٣) الوجد: الحب، و «هـ: يعنى امـرأ القيس» ويشيـر إلى قصة امرئ القيس التى ذكرها فى معلقته؛ وننقلها هنا عن جمهرة أشعار العرب للقرشى، قال:

ألاَ ربَّ يومٍ لـكَ منهـنَّ صـالحٍ	ولا سيـما يومٌ بدارةِ جُـلجُلِ
ويومَ عـقـرتُ للعـذارى مطيـتى	فيَا عـجبا من رحلهَـا المتحـمَّلِ
ويا عـجبًا منْ حلِّـها بعـدَ رحلهَـا	ويَا عـجـبًا للجـازرِ المتـبـذِّلِ
فظلَّ العـذارى يرتـمينَ بلحـمهَـا	وشـحمٍ كـهُدَّابِ الدِّمَـقْسِ المُـفـتَّلِ
تُدارُ علـينا بالسَّـديفِ صِحـافُنَا	ويُؤتى إلينَا بالعبـيطِ المُـشـمَّلِ
ويومَ دخلتُ الـخـدر خـدر عُنَـيْـزةٍ	فـقالتْ: لكَ الويلاتُ إنكَ مُـرْجلى
تقـولُ وقـدْ مالَ الـغبـيطُ بنَا معًـا	عقَـرْتَ بعيرى يا امرأَ القيسِ فانزلِ
فـقلتُ لهَـا سيرى وأرخى زِمـامهُ	ولاَ تُبْـعِـدينى عنْ جَناكِ المُـعَلَّلِ
دعى الـبكْـرَ لا ترثى لـهُ من رِدافـنَا	وهاتـى أذيقـينَا جناةَ القَـرَنْـفُلِ
بثـغـر كـمـثلِ الأُقـحُـوانَ منوَّرٍ	نقىِّ الـثنايَا أشْـنبٍ غـيـر أثعلِ

(٤) عقر المطية: ضرب قوائمها وذبحها، وقوله (يختل) كذا بالأصل، ولعله من الخيلاء، وهى هنا الارتياح لفعل الكرم.

(٥) هـ: «بخطه: رحله».

وركبـنَ أفـواجًـا وقلـنَ فُكاهةً ... ما كنت محتالا لنفسك فاحتلِ[١]
فثوى معَ ابنة خـيرهمْ فى خدرهَا ... واشتقَّ عنْ ملك الطريقِ المعملِ[٢]
جـارُوا بهـنَّ ولوْ يشـاءُ أقـامـهُ ... قلب يعـزُّ قطا الفلاة المَـجْهَلِ[٣]
وتقـولُ لمَّا مـالَ جانبُ خـدرهَا ... انزلْ لكَ الويلاتُ إنكَ مُرْجِلِى[٤]
وأرى منَ الرأى المـصيب ثبـاته ... أن لا تصل حبلا إذَا لمْ تُوصَلِ[٥]
واسـتبقِ ودكَ للصـديق ولا تقلْ ... أبدًا لذى ضـغنٍ مـبـين أقْـبلِ[٦]
ودعِ الفواحشِ مَا استطعتَ لأهلهَا ... وإذَا هممْتَ بأمـرِ صدقٍ فـافعلِ
وإذا غـضبتَ فـلا تكنْ أنشـوطة ... مُـسْتـعـتدًا لفـاحـشة وتبـسُّلِ[٧]

---

(١) هـ: «الفكاهة: المزاح، قال أبو عمرو: خرج أمـير المؤمنين على عليه السلام على الحسن والحسين وقنبر وهو يمـازحهما، فقال: دعوا عنكم الفكاهة، فإنهـا تورث الضغائن، صدق أمير المؤمنين».

(٢) هـ: «بخطه: فنزا، وفى الحاشية: فثوى» وثوى: أى أقام.

ومَلْكُ الطريق ومِلـكه: وسطه، والطريق المُـعْـمَل: اللحب المـسلوك، والمـعنى أنه ترك الطريق المسلوك وأخذ آخر مهجورا كى لا يراهما أحد.

(٣) القطا: نوع من الطير شهيـر بمعرفته الرجوع إلى موطنه الأول مـهما أبعدت به، وفى هـ: «الممحل، وبخطه: كـذا» والمعنى أنه يعرف الطريق أحسن من معـرفة القطا له، فلو شاء لمكث معهن ولم يترك الخدم ينحرفون بهن.

(٤) أى ستعقر بعيرى فأضطر إلى السير راجلة.

(٥) فى هـ: «بتانه» فى موضع «ثباته» وفى هـ أيضا «كذا كان مكتوبا نصلْ، مجزوما».

(٦) المبين: الواضح.

(٧) الأنشوطة: العقدة التى يسهل حلها، أى لا تكن مندفعا فـى غضبك، و «مستعتدا» كذا فى هـ، وفى ص، ش «مستعدوا» والمعنى مستعدا، والتبسل: العبوس من الغضب.

وإنِ افتقـرتَ فلا تكنْ متخـشّعًا ترجو الفواضلَ عندَ غيرِ المُفْضِلِ(١)

وإذا كُفيتَ فكنْ لعـرضكَ صائبًا وإذَا أُجِئتَ لِـبذلِه فتـبـذلِ(٢)

وامنعْ هضيمتاكَ الذليلَ ولا يُرى مولاكَ مُهـتضَمًا وأنتَ بـمعزلِ(٣)

وإذَا تُنُوزعتِ الأمـورُ فـلا تكنْ ممنْ يطأطِـئُ خـدهُ للأسـفلِ(٤)

واعـمِـدْ لأعـلاهَا فـإنكَ واجـدٌ أحسابَ قومكَ باليفاعِ الأطولِ(٥)

قومى شنوءَةُ إنْ سألـتَ بمجدهمْ فى صـالحِ الأقـوامِ أوْ لـمْ تسـألِ

أُخـبرتَ عنْ قـومى بعـزٍّ حاضـرٍ وقـيـامِ مـجـدٍ فِي الزمـانِ الأولِ

ومـآثِرٍ كـانتْ لهمْ مـعلومـةٍ فِي الصالحينَ وسُؤْدُدٍ لم يُنْحَلِ(٦)

الدافـعـينَ الذمَّ عـنْ أحـسابهمْ والمُكْرِمـينَ ثَوِيَّهُمْ فى المنزلِ(٧)

---

(١) هـ: «مستوفرا» فى موضع «متخشعا» ومعنى متخشع: ذليل يريد أن يقول: إذا افتقرت فلا تلبس ثوب الذل، ولا تسأل الفضل من الناس، بل اسأل المعطى الوهاب.

(٢) هـ: «بخطه، افتقرت لبذله» فى موضع «أجئت لبذله» وفى ص، ش: «لبذلة» بالتاء.

(٣) الهضيمة: الظلم أى لا تظلم الذليل المسكين، ولا ترض بذل مولاك بل ساعده ليكون عزيزا.

(٤) «ممن» كذا فى ش، وفى ص: «مما»

(٥) اليفاع: المرتفع من الأرض.

(٦) نحل السؤدد: ادعاه ولم يكن سيدا.

(٧) الثوى: بمعنى الضيف هنا.

والمطعمينَ إذَا الرياحُ تناوحتْ — بقَتامها فى كلِّ عامٍ مُمْحلِ(١)
وتغيرتْ آفاقها من بردهَا — وغدتْ بصُرَّادٍ يزيفُ وأشمُلِ(٢)
المانعينَ منَ الظُّلامةِ جارهمْ — حتى يبينَ كسيِّدٍ لم يُتْبَلِ(٣)
والخالطينَ دخيلهمْ بنفوسهمْ — وذوى بقيةِ مالِهمْ فى العُيَّلِ(٤)
وترى غنيَّهمُ غزيرًا رِفْدُهُ — وفقيرهمْ مثلَ الغنىِّ المُفْضِلِ(٥)
وترى لهمْ سيما مُبِينًا مَجْدُهَا — غلبوا عليهَا الناسَ عندَ المحفلِ(٦)
وتراهمُ يمشونَ تحتَ لوائهمْ — بالسَّمْهَرياتِ الطِّوالِ الذُّبَّلِ(٧)

---

(١) هـ: «تناوحت: استقبل بعضها بعضا» وذلك أن الرياح عند ما تتلاقى تحدث صوتا يشبه النواح، والقتام: الغبار، والممحل: المجدب، فالرياح تسفى القتام فى الأعوام المجدبة، لعدم وجود الزرع الذى يمسك بالغبار ويصده، والإطعام فى هذه السنين دليل على شدة الكرم، وانطباع النفس عليه.

(٢) هـ: «بخطه: من قرها» فى موضع «من بردها» والصراد: الغيم الرقيق لا ماء فيه، ويزيف: يسير متبخترا، وفى هـ «وبخطه: أشمل: جمع شمل وهى لغة فى الشمال، تغيرت آفاق السماء من برد الدنيا وغدت إلينا. . .».

(٣) «المانعين» كذا فى هـ، وفى ص، ش: «المانعون» ويبين: يفارق ويرتحل، وفى هـ: «لم يتبل: لم يؤخذ منه التبل».

(٤) الدخيل هنا: بمعنى الضيف، والعيل: المفتقرون.

(٥) «غزيرا» كذا فى هـ، وفى ص، ش: «عزيزا».

(٦) السيما: العلامة.

(٧) السمهرية: القناة الصلبة، وهى منسوبة إلى «سمهر» اسم رجل كان يقوم الرماح. والذبل: الرفيعة، وهى صفة مستحسنة فى الرماح.

فى ساطعٍ يسقى الكُماةَ نجيعهُ — صعبٍ مذاقتهُ رزينِ الكلكلِ(١)
كمْ فى شنوءَةَ منْ خطيبٍ مِصْقعٍ — وسطَ الندىِّ إذَا تكلمَ مِفْصلِ(٢)
جَزْلِ المواهبِ يُستضاءُ بوجهه — كالبدرِ لاح منَ السحابِ المُنْجلى
نابٍ بكلِّ عظيمةٍ تغشاهمُ — فمتى تُحَمِّلْهُ العشيرةُ يحملِ(٣)
منْ خُطَّةٍ لا يُستطاعُ كفاؤهَا — أو غُرمِ عانٍ منْ صديقٍ مُثْقلِ(٤)
إنى منَ الأزدِ الذينَ أنوفُهمْ — عندَ السماءِ وجارُهمْ فى مَعْقلِ(٥)
رامتْ تميمٌ أن تناولَ مجدنَا — ورموْا بسهمٍ فى النضالِ مُعَضَّلِ(٦)
وسعَوْا بكفٍّ ما تنوءُ إلى العلا — مقبوضةٍ فتذبذبتْ فى المهبلِ(٧)

---

(١) الساطع: السيف المتلألئ البراق، هـ: «الكمى: الشديد الذى يكمى شجاعته، أى لا يظهرها» فهو يسترها تحت الدروع، و «نجيعه» كذا فى ش، وفى ص: «بحتفه».

(٢) «مفصل» كذا فى ش، وفى ص: «مفضل».

(٣) ناب بكل عظيمة: متفرد فى القيام بالعظائم، و«تغشاهم» كذا فى ش، وفى ص: «يعشاهم» والمعنى: تصيبهم.

(٤) الكفاء: المثل، والعانى: الأسير، والمثقل: الذى أثقلته الحاجة، أى إن الممدوح يفرج كروب المكروبين.

(٥) ص، ش: «الأسد» موضع «الأزد» والمعقل: الملجأ الحصين.

(٦) «النضال» كذا فى ش، وفى ص: «النصال» وفى هـ: «بخطه: معصل» والسهم المعضل أو المعصل: هو الذى يلتوى إذا رمى به.

(٧) ش: «سطوا» فى موضع «سعوا» وفى هـ: «مقبوضة أى لا تنهض إلى العلى، يقول: قصير الباع» والمهبل: الرحم.

حسداً على المجد الذى لم يأخذوا | فيما مضى منهُ بحبة خردل
وأنَا الذى نبحتْ معدٌّ كلهَا | أسدٌ لدى الغايات غيرُ مُخذَّل(١)
قلْ للثعالبِ هلْ يضرُّ ضُباحُهَا | أسداً تَفرَّسها بناب مقْصلِ(٢)
ولقدْ أصبتُ منَ القريضِ طريقةً | أعيتْ مصادرهَا قرينَ مُهَلْهلِ(٣)
بعدَ امرئْ القيسِ المُنوَّه باسمه | أيامَ يهذى بالدخول فحوملِ(٤)
وأبو دُوادٍ كانَ شاعرَ أمةٍ | أفلتْ نجومُهُمُ ولمَّا يأفلِ(٥)

(١) «الغايات» كذا فى ش، وفى ص: «الغابات» والشطر الثانى فى هـ: «قال: وأشدُّ فى الغابات...» وفى ص، ش «مخدل» بدال مهملة، والمخذل: المخذول المهزوم.

(٢) الضباح: صوت الثعلب، وتفرس: افترس، والمقصل: القاطع.

(٣) القريض: الشعر، وفى ص، ش: «أعمت» فى موضع «أعيت» وهو تصحيف، و «قرين» كذا فى هـ، وفى ص، ش: «قريض». وقرين مهلهل: شيطانه الذى يلهمه الشعر، ومهلهل بن ربيعة التغلبى واسمه عدى، ولقب مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر أى أرقه. وكان قائد تغلب فى حرب البسوس التى اندلع لهيبها بسبب قتل جساس لأخيه كليب، وبعد خمودها سافر إلى اليمن وأقام هناك، فتزوجوا ابنته كرها عنه، ثم أسره عوف بن مالك؛ ومات فى أسره، وهو خال امرئ القيس، وجد عمرو بن كلثوم.

(٤) امرؤ القيس الملك الضليل، صاحب المعلقة المشهورة، وأمير شعراء الجاهلية، أشهر من أن يترجم له. ونوَّه باسمه: رفع ذكره وفى هـ: «وحومل» بالواو بدلا من الفاء، والدخول وحومل موضعان، وسراقة لا يعنيهما، وإنما يعنى معلقة امرئ القيس، لورودهما فيها:

قفا نبكِ منْ ذكرى حبيب ومنزلِ | بسقط اللوَى بينَ الدخولِ فحوملِ

(٥) يشير إلى أبى دواد الإيادى الشاعر الجاهلى المشهور بنعت الخيل.

وأبوُ ذؤيب قــدْ أذلَّ صِــعــابهُ (لا يُنْصِبَنَّكَ) رابضٌ لم يُذْلَلِ[١]

(١) أبو ذؤيب الهذلى الشاعر المخضرم، واسمه خويلد بن خالد، آمن بالنبى، ولكنه لم يره، واشترك مع الجيوش الإسلامية الغازية، فخرج إلى المغرب فى غزاة مع عبد الله بن الزبير، فمات ودفن هناك، ويقال إنه لم يمت بالمغرب، وإنما بأرض الروم.

«أذل»: كذا فى ش، وفى ص: «أزل» وفى هـ: «يرضينك» فى موضع «ينصبنك» و «رابض» كذا فى ص، وفى ش «رائض» وهو فاعل أذل فى الشطر الأول، يقول: لا يهولنك أمره، فقد أذله أسد رابض لم يذل لأحد، يريد ابن أخته.

لم أجد فى ديوان أبى ذؤيب قصيدة فيها هذا الشطر (الثانى) ولكنى رجحت أن سراقة يشير إلى قصة أبى ذؤيب مع ابن أخته خالد بن زهير، الذى كان رسوله إلى حبيبته، فأغواها وأخذها منه، كما أغواها أبو ذؤيب إذ كان رسول عبد عمرو بن مالك إليها من قبل، وأخذها من عبد عمرو. وقال أبو ذؤيب عدة قصائد فى ذلك، وإنى مورد إحداها لتوضح جو القصة كما يصوره أبطالها، حتى تتمثل إشارة سراقة تمثلا صحيحا، قال أبو ذؤيب:

ما حملَ البُختىُّ عامَ غِياره ... عليه الوُسوقُ بُرها وشعيرُها
أتى قريةً كانت كثيرًا طعامهُا ... كرَفْغ الترابِ كلُّ شىءٍ يميرُها
فقيلَ: تحمَّلْ فوقَ طوقكَ إنها ... مُطبَّعةٌ من يأتها لا يَضيرُها
بأعظم مما كنتُ حمَّلتُ خالدًا ... وبعضُ أماناتِ الرجالِ غُرورُها
ولو أننى حمَّلته البُزْلَ لم تقمْ ... به البزلُ حتى تَتْلئِبَّ صدورُها
خليلى الذى دلى لغىٍّ خليلتى ... فكُلا أراهُ قد أصاب عرورُها
فشأنكها إنى أمينٌ وإننى ... إذا ما تحالى مثلهُا لا أطورُها
أحاذر يومًا أن تبينَ قرينتى ... ويُسْلمَها جيرانها ونصيرُها
رعى خالدٌ سِرى ليالى نفسه ... توالى على قصْدِ السبيلِ أمورُها
فلما تراماه الشبابُ وغيُّه ... وفى النفس منه فتنةٌ وفجورُها
لوى رأسه عنى ومالَ بودِّه ... أغانيجُ خَودٍ كان قدمًا يزورُها
تعلقه منها دلالٌ ومُقلةٌ ... تظل لأصحاب الشقاء تديرُها =

= وما يحفظُ المكتومَ منْ سرِّ أهله ... إذا عُقَدُ الأسرار ضاعَ كبيرُها

مِن القوم إلا ذو عفافٍ يُعينهُ ... على ذاك منه صدقُ نفسٍ وخيرُها

فإن حراما أنْ أخونَ أمانةً ... وآمن نفسًا ليس عندى ضميرُها

فنفسَكَ فاحفظها ولا تُفْشِ للعدا ... من السرِّ ما يُطوى عليه ضميرُها

متى ما تشأ أحملْكَ والرأسُ مائلٌ ... على صعبةٍ حرفٍ وشيكٍ طُمورُها

وما أنفسُ الفتيانِ إلا قرائنٌ ... تبين ويبقى هامُها وقبورُها

فأجابه خالد:

لا يُبعدنَّ اللهُ لُبَّكَ إذْ غزَا ... فسافرَ والأحلامُ جمٌّ عُثورُها

وكنتَ إماما للعشيرةِ تنتهى ... إليكَ إذا ضاقتْ بأمرٍ صدورُها

لعلكَ إما أمُّ عمرو تبدَّلتْ ... سواك خليلا شاتمى تستحيرُها

فلا تجزَعنْ من سنَّةٍ أنتَ سِرْتَها ... وأولُ راضى سنةٍ من يسيرُها

فإن التى فينا زعمتَ ومثلها ... لفيكَ ولكنى أراكَ تجورُها

تنقذتها منْ عبدِ عمرو بنِ مالكٍ ... وأنت صفىٌّ النفسِ منه وخيرُها

يُطيلُ ثواءً عندها ليردها ... وهيهاتَ منه دُورُها وقصورُها

وقاسمها باللهِ جهدًا لأنتمُ ... ألذُّ من السلوى إذا ما نَشورُها

فلم يغنِ عنه خَدْعُهُ حين أعرضتْ ... صريمتها والنفسُ مرٌّ ضميرُها

ولم يُلْفَ جَلْدًا حازمًا ذا عزيمةٍ ... وذا قوةٍ ينفى بها من يزورُها

فإن كنتَ تشكو من قريب مخانةً ... فتلك الجوازى عَقْبها ونُصورُها

وإن كنتَ تبغى للظلامة مركبًا ... ذلولاً فإنى ليس عندى بعيرُها

نشأتُ عسيرًا لم تُدَيَّثْ عَريكتى ... ولم يعلُ يومًا فوق ظهرى كُورُها

فلا تكُ كالثورِ الذى دُفنتْ له ... حديدةُ حتفٍ ثم ظلَّ يُثيرُها

ولا تسبقنَّ الناسَ منى بحزةٍ ... من السّم مذرورٍ عليها ذرورُها

وإياكَ لا تأخذك منى سحابةٌ ... يُنفِّر شاءَ المُقلِعينَ خريرُها

وأرادها حسَّانُ يومَ تعرضتْ ... بردى يُصفّقُ بالرحيقِ السلسلِ[١]

(١) هـ: «ويروى، فأدارها» وفى ص، ش: «الرحيل» باللام، بدلا من القاف، وهو خطأ.

وحسان: هو ابن ثابت الخزرجى شاعر مخضرم، مدح الغساسنة فى الجاهلية ودافع عن الرسول بعد الهجرة ضد شعراء قريش، وكان ينشد الشعر على منبر الرسول، وهو يستمع له، وقد مدح شعره، وعمر حسان طويلا، ومات فى عهد معاوية بن أبى سفيان، ويشير سراقة إلى قصيدة حسان فى مدح الغساسنة:

أسألتَ رسمَ الدار أم لم تسألِ ... بين الجوابى فالبُضَيْع فحوملِ
فالمرجِ مرجِ الصُّفَّرَيْنِ فجاسمٍ ... فديار سلمى دُرَّسًا لم تُحْللِ
دمنٌ تعاقبها الرياحُ دوارسٌ ... والمُدجناتُ من السِّماكِ الأعزلِ
دارٌ لقومٍ قد أراهمْ مرةً ... فوقَ الأعزة عزُّهمْ لم ينقلِ
لله درُّ عصابةٍ نادمتُهمْ ... يومًا بجلَّق فى الزمان الأولِ
يمشونَ فى الحُللِ المُضاعَفِ نسجها ... مشىَ الجمالِ إلى الجمال البُزَّلِ
الضاربون الكبشَ يَبْرُق بيضه ... ضربًا يطيحُ له بنانُ المَفْصِلِ
والخالطون فقيرَهم بغنيِّهمْ ... والمنعمون على الضعيف المُرْملِ
أولادُ جَفنةَ حولَ قبرِ أبيهمِ ... قبر ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ
يُغشونَ حتى ما تهرُّ كلابهم ... لا يسألونَ عن السوادِ المقبلِ
يَسقون مَن وردَ البَريص عليهمُ ... بَرَدى يُصفِّق بالرحيقِ السلسلِ
يُسقون درياقَ الرحيق ولم تكن ... تدعى ولائدهم لِنَقْفِ الحنظلِ
بيض الوجوهِ كريمةٌ أحسابهمْ ... شُمُّ الأنوفِ من الطِّراز الأولِ
فلبثتُ أزمانًا طِوالا فيهمُ ... ثم ادَّركتُ كأننى لم أفعلِ
إمَّا ترَىْ رأسى تغيَّرَ لونُهُ ... شَمَطًا فأصبح كالثَّغامِ المُخْولِ
ولقد أرانى مُوعِدىً كأننى ... فى قصر دُومَةَ أو سماء الهيكلِ

=

ثمَّ ابنُـهُ منْ بعـــده فـتـــمـنَّعتْ وإخـالُ أنَّ قــرينهُ لمْ يَـخْـذُلِ(١)

= ولقـد شربتُ الخـمـرَ فى حانوتهـا صـهـبـاءَ صـافـيـة كطعـم الفُلْفُلِ

يســعى علىّ بكـأسـهـا مــتنطّفٌ فـيــعُلّنى مـنهـا ولو لـم أنهلِ

إن التـى ناولتـنى فـــرددتُهـــا قُـتِلَتْ قُـتِلْتَ فـهـاتهـا لـم تُقْـتَلِ

كلتـاهما حـلبُ العصـيـر فعـاطِنى بزجـاجـةٍ أرخـاهمـا للمَـفْـصِلِ

بزجـاجـةٍ رقصت بـما فى قـعـرها رقص القلوص براكـب مسـتـعـجلِ

نسـبى أصـيـلٌ فى الكرامِ ومِـذودِى تَكْوِى مـواسـمـهُ جُنوبَ المـصطلِى

ولقــد تُقلِّدنَا العــشـيـرةُ أمـــرها ونســـودُ يـومَ النائبـــاتِ ونعــــتلى

ويسـودُ سـيـدنَـا جَـحـاجِحَ سـادةً ويُصـيـبُ قـائلـنا سـواءَ المـفـصلِ

ونحـــاولُ الأمـــرَ المـــهمَّ خَـطابةً فـيـهم ونفـصل كلَّ أمـر مُـعـضلِ

وتزورُ أبـوابَ المـلوكِ ركـــابُـنَا ومـــتى نحكّـمْ فى البـــريةِ نعـــدلِ

وفـتى يحبُّ الحـمـدَ يجـعلُ مـاله منْ دونِ والـدهِ وإن لم يــســـألِ

باكـــرتُ لذتهُ ومـــا مـــاطلتُـــهَـــا بزجـاجـــةٍ من خـيـــرِ كـرْمٍ أهْدَلِ

(١) هـ: «ابنه عبد الـرحمن بن حسان» وهو شاعـر أيضا، وله حكاية ظريفة، فقـد تغزل بابنة معاوية، فأراد يزيد أن يقتله، ولكن مـعاوية هدأه، وأرسل إلى عبد الرحمن، وقال له: إن ابنته الأخرى غـاضبة لعدم تغزله بها، ولم يكن لمـعاوية بنات أخر، فتغزل عـبد الرحمن بالأخرى، فظهـر للناس كذبه، وقـد التجأ يزيد للأخطل، فـهجـا عبد الرحـمن والأنصار بالأشعار التى يقول فيها:

* واللؤم تحت عمائم الأنصار *

فدخل النعمان بن بشـير على معاوية وخلع عمامته، وقال: أترى لؤمـا؟ فسكَّن معاوية من غضبه، ولكنه طلب منه أن يقطع لسان الأخطل، فتوسط له ابنه يزيد.

و «يخذل» كذا فى ش، هـ، وفى ص: «يخدل» بالدال.

وبنو أبى سُلمى يقصِّرُ سعيُهمْ — عنَّا كما قصُرتْ ذراعًا جرْول[١]
وأبو بصير ثَمَّ لمْ يَبْصُرْ بها — إذ حَلَّ منْ وادى القريضِ بمَحْفَلِ[٢]
واذكرْ لَبيدًا فى الفحول وحاتمًا — سيلُومكَ الشعراءُ إنْ لمْ تفعلِ[٣]
ومُعقَّرًا فاذكرْ وإنْ ألوَى به — ريبُ المَنون وطائرٌ بالأخيلِ[٤]
وأُمَيَّةَ البحرَ الذى فى شِعرهِ — حِكَمٌ كوحيٍ فى الزبورِ مفصَّلِ[٥]

(١) بنو أبى سلمى: أسرة زهير بن أبى سلمى الشاعر الشهير، صاحب المعلقة المعروفة، وخاله شاعر، وهو بشامة بن الغدير، وابناه كعب وبجير شاعران، ولا ننسى أن نشير إلى قصيدة البردة لكعب، التى مدح بها الرسول، فوهب له بردته.

وفى هـ: «جرول: هو الحطيئة» الشاعر المخضرم الهجّاء المعروف الذى هجا أباه وأمه ونفسه وزوجته.

(٢) أبو بصير الأعشى، واسمه ميمون، شاعر جاهلى أدرك الرسول، وذهب إليه ليسلم ويمدحه، فقابلته قريش ومنحته الهبات، والتمست منه الرجوع، فرجع ومات فى طريقه، وكان يسمى صناجة العرب، لأنه كان يغنى شعره على الصنج.

(٣) لبيد الشاعر المخضرم صاحب المعلقة أدرك الرسول.

وحاتم الطائى الجواد المعروف، الذى يضرب به المثل، وقد كثرت القصص عن كرمه فى حياته وبعد مماته، وله ديوان مطبوع.

(٤) معقر بن حمار البارقى: هو معقر بن الحارث بن أوس، شاعر محسن متمكن، كذا قال الآمدى فى المؤتلف والمختلف.

وفى هـ: «الأخيل: الشقراق، وهم يتشاءمون به» ولعل المراد بالأخيل هنا: اسم مكان بين دور عبد الله بن غطفان ودور طيئ، كما فى معجم ما استعجم للبكرى، ولعل معقرا مات هناك.

(٥) أمية بن أبى الصلت الشاعر المخضرم عاش بالطائف، وكان يتحنف قبل الإسلام، ويرجو أن يكون الرسول المنتظر، فلما ظهر النبى حسده ولم يؤمن به، وله شعر يبين عن إيمان بالله وأبيات تشبه الآيات القرآنية شبها قريبا والزبور: الكتاب.

والـيَـذْمُـرِىُّ على تقـادم عـهـده ... ممنْ قضيتُ لهُ قضاءَ الفيصلِ[(١)]
واقذفْ أبا الطَّمَحان وسْطَ خُوانهمْ ... وابنُ الطرامـة شاعرٌ لمْ يُـجْهلِ[(٢)]
لا والذى حـجَّتْ قـريـشٌ بيـتـهُ ... لوْ شـئتُ إذْ حـدَّثـتُكمْ لمْ آتلِ[(٣)]
مـا نالَ بحـرى منهمُ منْ شـاعـرٍ ... ممنْ سمعت به ولا مـستعجلِ[(٤)]
إنى فتًى أدركتُ أقـصى سعـيهمْ ... وغرفتُ منْ بحرٍ وليسَ بجدولِ[(٥)]
وغـرفتُ بحـرًا ما تُـسَدُّ عـيـونهُ ... أربى على كعبٍ وبحرِ الأخطلِ[(٦)]
وعلى ابنِ مَحْكانَ الذى أحكمـتُهُ ... فتـركتهُ مثلَ الخَـصىِّ المرْسلِ[(٧)]
وحليفِ إبلـيسَ الذى هوَ جـارهُ ... وبهِ يغـيِّـرُ كلُّ أمـرٍ مـعْـضلِ

---

(١) بحثت عن اليـذمرى كثيرا، ولكنى لم أجـد شاعرا بهذا الاسم، ولعل اللـفظ محرف عن اليعفرى أو ما أشبهه، ولعله يريد الأسود بن يعفر النهشلى.

والفيصل: القاطع المفرق بين الحق والباطل، يريد السيف أو القاضى العادل.

(٢) أبو الطمحان القينى، واسـمه حنظلة بن الشرقى، شاعر محسن مشـهور، و «أبو الطمحان» كـذا فى ش، وفى ص: «أبو طمـحـان» و «خـوانهم» كـذا فى ش، وفى ص: «حـوانهم» بالحـاء، وفى هـ: «هو ابـن الطرامـة الكلبى، ويروى: لم يخـمـل، ويخـمل أى يذهب شعره».

(٣) هـ: «بخطه، ايتل» فى موضع «آتل».

(٤) كذا فى الأصول، ولعله محرف عن مستفحل.

(٥) «سعيهم» كـذا فى ش، وفى ص: «سعرهم» وهو تصحيف، وفى نسخـة المجلة الأسيوية: شعرهم.

(٦) هـ: «كعب بن جعيـل أو كعب بن زهير» والأخطل التغلبى شاعر البـلاط الأموى فى عهد عبـد الملك بن مروان؛ وقـد اشتبك مع جـرير فى عدة أهاج، وهو فى الطبـقة الأولى من الشعراء الإسلاميين.

(٧) مرة بن مـحكان السعدى التمـيمى، من بطن يقال لهم بنـو ربيع، وكان سيدهم وقـد قتله صاحب شرطة مصعب بن الزبير.

وهُدَيْبَةَ العُذْرِىَّ زيَّن شعرهُ مَا قالَ فى سجن وقيد مُثْقلِ[(١)]
فإذا تقبَّلَ ربُّنا منْ شاعر لقى الفرزدقُ لعنةَ المتبهِّلِ[(٢)]
عمدا جعلتُ ابنَ الزَّبير لذنبه يعدو وراءهمُ كعدو التَّيْتَلِ[(٣)]
ذهب السوابقُ غُدوةً وتركنهُ إنى كذلكَ منْ أُناضلْ يُنْضلِ
منْ شاءَ عاقبنى فلمْ أغفرْ لهُ أوْ صدَّ عنى بعدَ جَذْعٍ مُؤْصلِ

* * *

ذكروا[(٤)]:

(١) هدبة: تصغير هدبة بن خشرم العذرى، الذى تشاتم مع زيادة بن زيد العذرى، فأهانه زيادة، فتربص له هدبة، وقتله غيلة ثم هرب، ولكن الوالى حبس أهله، فرجع هدبة وأسلم نفسه، فحبس وقتل، فى هـ: «ما نال من سجن» فى موضع «ما قال فى سجن».

(٢) فى هـ: «فعلى الفرزدق».

(٣) عبد الله بن الزبير كوفى المنشأ، كان من شيعة الأمويين، واتصل بمصعب بن الزبير، ومدح أسماء بن خارجة، وقد سجنه زفر بن الحارث بقرقيسياء، ومدح عبد الملك بن مروان وأخاه بشرا.

(٤) أحببت أن أطلعك على هذا الحادث فى كتب التاريخ، كى تتصور الموقعة تصورا كاملا، فهاك الخبر من كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، من حوادث عام ٦٦ هـ، الجزء الثامن ص٢٦٩.

«أرجف أهل الكوفة بالمختار، وقالوا قتل يزيد بن أنس «أحد قواد المختار» فى المعركة، وانهزم جيشه، وعما قليل يقدم عليكم ابن زياد «الذى كان يزيد بن أنس يحاربه» فيستأصلكم، ويشتفّ خضراءكم، ثم تمالئوا على الخروج على المختار، وقالوا: هو كذاب، واتفقوا على حربه وقتاله، وإخراجه من بين أظهرهم، واعتقدوا أنه كذاب؛ وقالوا قد قدم موالينا على أشرافنا، وزعم أن ابن الحنفية قد أمره بالأخذ بثأر الحسين، وهو لم يأمره بشىء، وإنما هو متقول عليه، وانتظروا بخروجهم عليه أن يخرج من الكوفة إبراهيم =

أن المختار(١) لما ظفر بالكوفة غدر به أشرافها، فثار عبد الرحمن بن

= ابن الأشتر، فإنه قد عينه المختار أن يخرج فى سبعة آلاف للقاء ابن زياد، فلما خرج ابن الأشتر اجتمع أشراف الناس ممن كان فى جيش قتلة الحسين وغيرهم، فى دار شبث بن ربعى، وأجمعوا أمرهم على قتال المختار، ثم وثبوا، فركبت كل قبيلة مع أميرها فى ناحية من نواحى الكوفة، وقصدوا قصر الإمارة، وبعث المختار عمرو بن ثوبة بريدا إلى إبراهيم ابن الأشتر، وقال: إن كنتم لا تصدقوننى فى أمر محمد بن الحنفية فابعثوا من جهتكم، وأبعث من جهتى من يسأله عن ذلك، ولم يزل يطاولهم حتى قدم ابن الأشتر بعد ثلاث، فانقسم هو والناس فرقتين: فتكفل المختار بأهل اليمن، وتكفل ابن الأشتر بمضر وعليهم شبث بن ربعى، وكان ذلك بإشارة المختار، حتى لا يتولى ابن الأشتر بقتال قومه من أهل اليمن، فيحنو عليهم، وكان المختار شديدا عليهم.

ثم اقتتل الناس فى نواحى الكوفة قتالا عظيما، وكثرت القتلى بينهم من الفريقين، وجرت فصول وأحوال حربية يطول استقصاؤها، وقتل جماعة من الأشراف منهم عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الكندى، وسبع مئة وثمانين رجلا من قومه، وقتل من مضر بضعة عشر رجلا، ويعرف هذا اليوم بجبانة السبيع، وكان ذلك يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة ست وستين، ثم كانت النصرة للمختار عليهم، وأسر منهم خمس مئة أسير، فعرضوا عليه، فقال: انظروا من كان منهم شهد مقتل الحسين فاقتلوه، فقتل منهم مئتان وأربعون رجلا، وقتل أصحابه منهم من كان يؤذيهم ويسىء إليهم بغير أمر المختار، ثم أطلق الباقين».

ثم يذكر ابن كثير قصة سراقة كما جاءت فى الديوان، فاقتصرت عليها هناك.

(١) المختار بن أبى عبيد الثقفى، كان رجلا طموحا يريد أن يتولى الكوفة بل الدولة الإسلامية، فأخذ يظهر الطاعة لابن الزبير، ثم انقلب عليه وأظهر التشيع، وتولى الكوفة عام ٧٥ بعد هروب وكان أول من قال بالبداء، وزعم أنه يعلم الغيب، وأن الملائكة تحارب فى صفه، وأتى بكرسى، وقال لجنده: هو لكم مثل التابوت للإسرائيليين، وله عدة مزاعم فاسدة، وتنتمى إليه طائفة الكيسانية، التى نسبت إلى كيسان صاحب شرطته، وقد قتله مصعب بن الزبير عام ٦٧هـ.

مخنف فى جبانة الصائديين(*) وثار عبد الرحمن بن الأشعث فى جبانة كندة(*) وثار سعيد بن قيس الهمدانى فى جبانة السبيع(*) وثار محمد بن عمير التميمى، وشبث بن ربعىّ فى المضرية والربعية فى الكناسة(*) فأصبح المختار وقد غدر به أهل الكوفة، فخرج حتى وقف بالرحبة(*) طويلا، يؤامر نفسه، إلى أى الفريقين يسير: إلى اليمانية أم إلى المضرية، ثم دعا إبراهيم[1] بن الاشتر، وأمره بالمسير إلى المضرية، فقال إبراهيم: بعثتنى إلى أهون الشوكتين، فدعنى أسير إلى أصحابى، وقفْ أنت مكانك، فإنّا إن ظفرنا بهؤلاء انهزم الآخرون من غير قتال، فسار إليهم إبراهيم بن الأشتر، فقتل يومئذ أشراف أهل الكوفة، وقتل سعيد بن قيس، وارتث عبد الرحمن بن مخنف بجراحة، وحمل إلى بيت امرأته من همدان، وانهزم الناس، وأسر منهم سبعون من معروفى أهل الكوفة، فيهم من الشعراء ثمانية: سراقة بارق، وأعشى همدان[2]

(*) أمكنة بالكوفة.

(١) إبراهيم بن الأشتر القائد العظيم الذى يسترضيه كل حزب ويستميله إليه، هو ابن الأشتر النخعى صاحب الإمام على، الذى مات مسموما على حدود مصر، وقد استعان المختار بإبراهيم عند انتزاعه ولاية الكوفة من عبد الله بن مطيع، وفى محاربة عبيد الله بن زياد، واستعان به مصعب بن الزبير، وقد ظل وفيا له إلى آخر حياته، بالرغم من إغراء عبد الملك بن مروان الملح، وتوفى مع مصعب عام ٧١ هـ.

(٢) أعشى همدان: شاعر كوفى من شعراء الدولة الأموية، وكان زوج أخت الشعبى والشعبى زوج أخته، وكان أحد الفقهاء القراء، ثم ترك ذلك وقال الشعر، وخرج مع ابن الأشعث، فأتى به الحجاج، فقتله صبرا، وكان الأعشى ممن أغزاه الحجاج الديلم فأسر، فلم يزل أسيرا فى أيديهم مدة، ثم إن بنتا للعلج الذى كان أسره هويته، وسارت إليه ليلا، وقالت له: أرأيتَ إنْ خلصتك أتصطفينى لنفسك؟ فقال: نعم، وعاهدها، فحلت قيوده، وأخذت به طريقا تعرفها حتى خلصته.

وابن همام السلولى[١] وابن الزبير الأسدى، وكان المختار لا يؤتى بأسير إلا قتله، فلما أدخلوا المسجد الأعظم وهو قاعد ينتظر مجيئهم بهم، فلما كانوا فى وسط المسجد، أمر بهم فصرفوا إلى السجن، فقال سراقة: يا هؤلاء هذه أول العافية، ثم نادى بأعلى صوته:

امننْ على الأقوامِ يا خيرَ معدْ[٢] وخيرَ منْ لبَّى وحيًّا وسجدْ[٣]

[وخيرَ منْ حلَّ بشجرٍ والجندْ][٤]

فقال المختار: من هذا المنادى؟ قالوا: سراقة بارق، فقال: علىَّ بالفاسق، فلما أتى به، قال المختار: كيف رأيت صنعَ الله بمن غدر وفجر؟ فقال سراقة: امنن علىَّ، قال: أما والله، حتى أقتلك قتلة ما قتلتها أحدًا قبلك من العرب، فلا[٥].

---

(١) عبد الله بن همام السلولى من بنى مرة بن صعصعة من قيس عيلان، وبنو مرة يعرفون ببنى سلول، لأنها أمهم، وهى بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة، وعبد الله هو القائل ليزيد بن معاوية يعزيه عن أبيه:

اصبرْ يزيدُ فقد فارقت ذامقة واشكرْ حباءَ الذى بالمُلك حاباكا

لا رزءَ أعظمُ فى الأقوامِ نعلمه كما رزئتَ ولا عقبى كعقباكا

أصبحت راعى أهل الدين كلهمِ فأنت ترعاهمُ واللهُ يرعاكا

(٢) «على الأقوام» كذا ص، ش، وفى ط، ك، ب: «علىّ اليوم».

(٣) «حيًّا» كذا ص، ش، ط، ك، وفى ب: «صام».

(٤) ك: «بتجر» فى موضع «بشحر» وشحر: هو ساحل البحر بين عمان وعدن، و «الجند»: كذا فى ط، ب، وفى ك، هـ: «جند» وهى بلد باليمن، وهذا البيت زيادة من هـ، ط، ك، ب.

(٥) فى ش: «أما والله، أقتلك قتلة ما قتلها أحد قبلك».

[قال سراقة: ومتى تقتلني؟ قال: اليوم][1] فقال سراقة: ما جعلك الله على ذلك قادرا اليوم، ولتقتلنني، قال: فمتى؟ قال: تمنُّ عليّ، ثم أغدر الثانية، فتظفر بالعراق، ثم تأتي الشام، فتظفر بها إلا دمشق؛ تحاصر أهلها، ثم تفتحها، فتذبح على درج دمشق تسعة وتسعين من كباش العرب، ثم تتمهم بي مئة، ووالله ما أصحابك هزمونا، قال: فمن هزمكم؟ قال: هزمنا قومٌ على الخيول البلق، والبراذين الشهب، عليهم العمائم، فقال المختار لأصحابه: اسمعوا يا شرطة الله، تلكمُ الملائكة، ثم أمر سراقة فصعدَ المنبر، فأخبر بمن هزمه، فأمره أن يحلف لهم، فقال[2] سراقة: فوالله، ما حلفت بيمين قطُّ، أنا فيها صادق، كنتُ أشدّ اجتهادا مني في يميني تلك، وأنا فيها كاذب، رجاء أن أفلتَ من المختار[3].

---

(١) زيادة من ص، وساقطة من ش.

(٢) ش: «قال» بدون فاء.

(٣) نسب الجاحظ هذه القصة لغير سراقة في كتاب المحاسن والأضداد، في فضائل محاسن الدهاء والحيل، قال:

«قدم شيخ من خزاعة أيام المختار، فنزل على عبد الرحمن بن أبان الخزاعي، فلما رأى ما تصنع سوقة المختار بالمختار من الإعظام، جعل يقول: يا عباد الله، أبا المختار يصنع هذا؟ والله لقد رأيته يتتبع الإماء بالحجاز، فبلغ ذلك المختار، فدعا به وقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله، لا تقدر على ذلك، قال: ولم؟ قال: أما دون أن أنظر إليك وقد هدمت مدينة دمشق حجر حجرا، وقتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، ثم تصلبني على شجرة على نهر فلا؛ والله إني لأعرف الشجرة الساعة، وأعرف شاطئ ذلك النهر، فالتفت المختار إلى أصحابه، فقال لهم: أما إن الرجل قد عرف الشجرة، فحبس، حتى إذا كان الليل بعث إليه، فقال: يا أخا خزاعة، أوَمزاح عند القتل؟ قال: أنشدك الله أنْ أقتل ضياعا، قال: وما تطلب ها هنا؟ قال أربعة آلاف درهم أقضي بها ديني، قال: ادفعوا له ذلك، وإياك أن تصبح بالكوفة، فقبضها وخرج.

ثم أمر المختار به إلى السجن، فبات فيه سراقة ليلته، ثم [بعث][1] إليه بأبيات هى:

ألاَ أبلغْ أبا إسحاقَ أنَّا	نزونَا نزوةً كانتْ علينَا[2]
خرجنا لا نرى الضُّعَفاءَ شيئًا	وكانَ خروجنَا بطرًا وحَيْنَا[3]
نراهم فى مَصَفِّهم قليلا	وهمْ مثلُ الدبى حينَ التقينَا[4]
[برزنَا إذْ رأيناهمْ فلمَّا	رأينَا القومَ قدْ برزوا إلينَا][5]
لقينا منهمُ ضربًا طِلَخْفًا	وطعنًا صائبًا حتى انثنينَا[6]

(١) «بعث» كذا فى ش، وساقطة من ص.

(٢) «أبلغ» كذا فى الجميع إلا ب: «أخبر».

وأبو إسحاق: كنية المختار، وفى س: «غزونا غزوة» وفى ف: «حملنا حملة» فى موضع «نزونا نزوة».

(٣) س: «الضغناسيا» فى موضع «الضعفاء شيئا» و «بطرا» فى جميع النسخ إلا س: «نظرا» والبطر: الأشر، والحين: الهلاك.

(٤) س، ف: «تراهم» بالتاء بدلا من النون، وفى ط، ف، ب: «مصافهم» فى موضع «مصفهم» والشطر الأول فى هـ: «حسبناهم لنا عسلا مشوبا» وفى هـ: «وكانوا كالدبى» فى موضع «وهم مثل الدبى» وفى ب: «الربا» بالراء بدل الدال، والدبى: صغار الجراد قبل أن يطير، وفى س، ف، ع: «لما» بدل «حين».

(٥) البيت زيادة من ش، ط، ب، وساقط من ص.

(٦) ب: «رأينا» بدل «لقينا» وفى ط، «طلحفا» بالحاء، وفى ب: «وطحنا» والطلخف والطلحف: الشديد، وفى س: ضاحكا، فى موضع «صائبا» وفى س: «انتبتنا» بدلا من «انثنينا».

نُصرتَ على عدوكَ كلَّ يومٍ ... بكلِّ كتيبةٍ تَنْعى حُسينَا[١]
كنصرِ محمدٍ فى يومِ بدرٍ ... ويومِ الشِّعبِ إذْ لاقى حُنينَا
فأسْجحْ إذْ ملكْتَ فلوْ ملكْنَا ... لَجُرْنَا فى الحُكومَةِ واعتدينَا[٢]
تقبَّلْ توبةً منى فإنى ... سأشكرُ إن جعلتَ العفوَ دِينَا[٣]
كذاكَ ترى سراقةَ فاصطنعْهُ ... فذاكَ يزيدُ منْ عاداكَ شَيْنَا[٤]

فلما انتهوا به إلى المختار، قالوا: هذا سراقة بن مرداس، يحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأى الملائكة تقاتل معكم على الخيل البُلْق، بين السماء والأرض، فقال له المختار: اصعد المنبر، فأعلم ذلك المسلمين، فصعد، فأعلمهم ذلك، ثم نزل، فخلا به المختار، فقال له: إنى قد علمت أنك لم ترَ الملائكة، ولكنْ أردتَ ما عرفتُ: ألاَّ أقتلك، فاذهب عنى حيث أحببتَ، لا تُفسدْ علىَّ أصحابى، فخلى سبيله، وقال له: تهيأ لدخول دمشق.

قال أبو مخنف: فحدثنى الحجاج بن على البارقى، قال: قال سراقة: ما كنتُ فى أيمانٍ حلفت بها قطُّ أشدَّ منى اجتهادا، ولا مبالغة فى الكذب، منى فى أيمانى هذه التى حلفتُ بها أنى رأيتُ الملائكة تقاتل معهم، فخلوا سبيله،

(١) س: «كتبة تتقى» فى موضع «بكل كتيبة تنعى» والحسين هو ابن على بن أبى طالب، لأن المختار شيعى، وقد خرج ليثأر للحسين من قتلته.

(٢) سجح: عفا، و «إذ» كذا فى ب، وفى ف «إن» والبيت زيادة من ب، ف، وساقط من الأصلين.

(٣) «العفو» كذا فى ب، وفى باقى النسخ: «النقد».

(٤) ش: «كذاك» فى موضع «فذاك» وهو تصحيف، والشين: العيب.

فلحق بعبد الرحمن بن مخنف عند المصعب(١) بالبصرة، فقال سراقة فى ذلك:

ألاَ أبلغْ أبَا إسحاقَ أنى ... رأيتُ البُلْقَ دُهْمًا مُصْمتاتِ(٢)

كفرتُ بوحيكم وجعلتُ نذرًا ... عليه قتالكمْ حتى المَماتِ(٣)

أُرى عينىّ ما لمْ تَرْأياهُ ... كلانا عالمٌ بالتُّرَّهاتِ(٤)

إذَا قالوا أقولُ لهمْ كذبتمْ ... وإنْ خرجوا لبستُ لهمْ أداتى

---

(١) مصعب بن الزبير: أخو عبد الله بن الزبير، تولى العراق بعد قتله المختار سنة ٦٧هـ، وقد حاربه عبد الملك بن مروان وقتله عام ٧١، وكان مصعب شجاعا جوادا بخلاف أخيه الذى كان كزا شحيحا، ولذلك مدح الشعراء المصعب وتركوا عبد الله، وكان عبد الملك يمدح شجاعة مصعب كثيرا.

(٢) ب: «أخبر» فى موضع «أبلغ» والشطر الأول فى ف، ع: «ألا من مبلغ المختار عنى» والبلق: جمع أبلق وبلقاء، وأراد الخيل البلق، وهى التى فيها بياض وسواد، والدهم: جمع أدهم ودهماء من الدهمة وهى السواد، وأراد أن الخيل البلق التى ذكرت أنها تطير، إنما هى خيل دهم، نحاربك عليها، وفى ف: «مضمرات» بدلا من «مصمتات» والمصمت: الذى لا يخالط لونه أى لون آخر.

(٣) غـ، ع: «بدينكم» فى موضع «بوحيكم» وفى ز: «ورأيت» بدلا من «وجعلت» وفى س: «هجاءكم» بدلا من «قتالكم» وفى هـ:

. . . . وبرئت منكم ... ومن أشياعكم حتى الممات

(٤) الشطر الأول كذا فى ص، ش، ف، ع، ز، ن، وفيه مشكلة صرفية، وهى إثبات الهمزة فى «ترأياه» والقياس نقل حركتها إلى الراء وحذفها؛ قال ابن جنى فى «سر الصناعة» «وقد رواه أبو الحسن: «ما لم تَرَيَاهُ» على التخفيف الشائع عنهم فى هذا الحرف على زحاف الوافر» ويقول الزجاجى فى أماليه الكبرى: «أما قوله «ترأياه» فإنه رده إلى أصله، والعرب لم تستعمل «يرى» و «ترى» و «نرى» و «أرى» إلا بإسقاط الهمزة تخفيفا، فأما فى الماضى فإنها مثبتة، وكان المازنى يقول: الاختيار عندى أن أرويه «لم ترياهُ» بغير همز، لأن الزحاف أيسر من ردّ هذا إلى أصله» وتخلص بعضهم منه =

[فلما بلغ المختارَ ذهابه إلى البصـرة وشعرهُ هذا هدم داره، فبناها مصعب حيث[1] قُتلَ المختار.

وقال سراقة:

عينيَّ جودًا . . . .

وهى مكتوبة فى آخر الديوان فى الزيادات[2]].

* * *

حدثه عمر بن شبة قال: حدثنى عبد الله بن محمد بن حكيم، عن خالد ابن سعيد بن عمر بن سعيد، عن أبيه، قال: قَحِط الناس فى زمن بشر بن مروان، فخرجوا فاستسقوا، وبشر معهم، فرجعوا وقد مُطروا، ووافق ذلك سيلا جاء من الليل، فغرقت ناحية بارق وبنى سليم، فخرج بشر من الغد ينظر إلى آثار المطر، حتى انتهوا إلى بارق، فإذا الماء فى دار سراقة بن مرداس البارقى، وسراقة قائم فى الماء، فقال: أصلح الله الأمير، إنك دعوت أمس ولم ترفع يديك، فجاء ما ترى، ولو كنت رفعت يديك لجاء الطوفان، فضحك بشر، فأنشأ سراقة يقول:

دعَا الرحمنَ بشرٌ فاستجابَا ... لدعوته فأسقانَا السحابَا
وكانَ دعاءُ بشرٍ صَوْبَ غيثٍ ... يُعاشُ بهِ ويُحيى مَا أصابَا[3]

= بروايته «تبصراه» كما فى هـ، غـ، ك، ط، وقال الأصمعى: الترهات: الطرق الصغار غير الجادة، تتشعب عنها، الواحدة ترَّهة، فارسى معرب، ثم استعير فى الباطل.

(١) كذا فى ص، ولعلها: حين أو بعد.

(٢) ما بين المعقوفين فى ص، وساقط من ش.

(٣) صوب الغيث: نزوله.

أغرُّ بوجهه يُستقى ويُحيَا ونَستجلي بغُرَّته الضبابَا

* * *

وقال سراقة يرثى محمد بن مخنف يوم جبانة السبيع:

لمْ أرَ مثلَ الخيلِ خيلِ ابنِ مخنف غداةَ انتدى بالشاكريِّ ابن كاملِ[1]
أشدَّ ولا أمضَى على الهولِ مَقدَمًا وأقتلَ للقرْنِ المُشيحِ المُنازلِ[2]
شددْنَا وشدوا واضطربنَا فلمْ نَخمْ وولوْا سراعًا كالنعامِ الجوافلِ[3]
فمَا لبثَ المختارُ أنْ كرَّ خيلَهُ علينَا فألْوتْ بالكرامِ الأماثلِ[4]
وصكَّتْ علينَا قومنَا منْ ورائنَا فكم منْ قتيلٍ بيننَا ومقاتلِ[5]
فما برحَ القرمُ الرئيسُ ابن مخنف يقاتلُ حتى خرَّ غيرَ مُوائلِ[6]
ونجاهُ ضربُ الأزدِ تزجُرُ حولهُ وتضربُ عنهُ بالسيوفِ القواصلِ[7]

---

(١) ص، ش: «اجتدى» فى موضع «انتدى» وانتدى: بمعنى اجتمع، أى اجتمع بالشاكرى فى الحرب، وانتدى: بمعنى صاح أيضا، أى صاح به ليحاربه.

وابن كامل هو عبد الله بن كامل الشاكرى الشيعى، أرسله الكوفيون ليسأل محمد بن الحنفية عن المختار، وقد جعله المختار على شرطته، وحارب مصعب بن الزبير مع المختار.

(٢) القرن: كفؤك فى الشجاعة، والمشيح: المقدم عليك.

(٣) «نخم» كذا فى ش وفى ص: «تخم» ونخم: أى نثقل ونسترخى، والجوافل: المنزعجة الهاربة.

(٤) ألوى به: ذهب به، وألوت به الخيل: قتلته.

(٥) صك: ضرب.

(٦) «القرم» كذا فى ش، وفى ص: «القزم» والقرم: السيد، وموائل: طالب للنجاة.

(٧) القواصل: القواطع.

ومنْ دونه حـامى أخٌ ذو حفـيظة ... كريمُ النثَا والخيم حلوُ الشمائلِ(١)
أغرُّ كـقرنِ الشمسِ أروعُ مـاجدٌ ... نجـيبٌ عنِ الأعداء ليسَ بـناكلِ(٢)
وضارَبَ حتى أقْصـدتهُ رماحهمْ ... فبوركتَ منْ ورَّاد موت حُلاحلِ(٣)
سـخوتَ بنفسٍ عندَ ذاكَ عـزيزة ... علينَا وأجلى كلَّ وانٍ وخـاذلِ(٤)
فيا عمرَ الخيرِ الكُرامَ ابنَ مـخنفَ ... عليكَ استفاضتْ عَبرتى غيرَ ذاهلِ(٥)
سأبكيكَ ما لمْ تنزحِ العينُ ماءهَا ... ومَـا أُثبـتتْ فى راحـتىَّ أناملى

* * *

وقال سراقة يـمدح إبراهيم بن الأشتر وأصحابه فى قـتل ابن مرجانة، وهو عبيد الله بن زياد(٦):

أتاكمْ غـلامٌ منْ عـرانين مَـذْحجٍ ... جـرىءٌ على الأعداء غيـرُ نَكولِ(٧)
فـيـا بـنَ زيادٍ بُؤْ بأعظـمِ مَـأْبَإٍ ... وذُقْ حدَّ ماضِى الشفرتين صقيلِ(٨)

---

(١) الحفيظة: الحمية والغضب، والنثا: الذكر الحسن أو القبيح، والخيم: الطبع.

(٢) ش «كريم» موضع «نجيب».

(٣) هـ: «أى رزين».

(٤) «وان» كذا فى ش، والوانى: الضعيف، وفى ص: دان.

(٥) «الكرام» كذا فى ش، وفى ص: «الكريم».

(٦) عبيد الله بن زياد بن أبيه ولى البصرة سنة ٥٥، ثـم ضمت إليه خراسان، ولكنه عزل عنها سنة ٥٦، ثم ضمت إليه الكوفة عام ٦٠هـ، وثار عليه الكوفيون والبصريون سنة ٦٤ فهرب إلى الشام، وكان هو الوالى الـذى قُتل فى عهده الحسـين، ولذا أرسل إليه المختار جـيشا بقيادة إبراهيم بن الأشتر سنة ٦٧ فحاربه وقتله.

(٧) العرانين: جمع عرنين، وهو هنا السيد الشريف.

(٨) ط، ب، ك: «هالك» فى موضع «مأبإ» وباء بالإثم: بمعنى رجع به وحمله.

ضربناكَ بالعَضْبِ الحسامِ فلمْ نجُرْ ... إذَا مَـا أبأنَا قـاتلا بقـتـيلِ[١]
جـزى اللهُ خـيـراً شـرطةَ الله إنهمْ ... شفَوْا منْ عبيد الله أمسِ غليلى[٢]
وأجـدرْ بهندٍ أنْ تُـسـاقَ سَـبِـيَّـةً ... لهَـا منْ بنى إسـحَاقَ شـرُّ حَليلِ[٣]

* * *

وقال سـراقة أيضـا حين بلغه أن ربيـعة تهـدد ابن الأشتر فـى قتل إياس بن مضارب[٤]:

---

(١) ط: «بحدة» فى مـوضع «فلم نجر» وفى ب: «نجـيعه» وفى ب: «أتانـا قتيـلا» فى موضع «أبأنا قاتلا» وباء للرجل بصاحبه بوءا، إذا قُتل به.

(٢) شرطة الله: جند المختار.

(٣) هند بنت أسماء زوجة عـبيد الله بن زياد، وقد كانت معه حين حـاربه ابن الأشتر، وعندما قتل زوجها ذهب بها أخوها عيينة بن أسماء وهو يرتجز:

إنْ تصـــرمى حَـبـــالنَا فــربمَـــا ... أرديتُ فى الهَـيْـجَا الكمىَّ الـمُعْلَـمـا

وبنو إسحاق: أبناء المختار.

(٤) إياس بن مضارب: صاحب شرطة عبد الله بن مطيع، والى عبد الله بن الزبير على الكوفة، وقد قتلـه إبراهيم بن الأشتر فى أثناء خروج المـختار على ابن مطيع، وهاك قصـة قتله فى حوادث عام ٦٦ من الكامل لابن الأثير:

«وخـرج إبـراهيم بن الأشـتـر يريد المختار ليلـة الثلاثاء، وقـد بلـغـه أن الجـبانـين (كـذا فـى الأصول، ولعـلـه الجبانات) قـد ملئت رجالا، وأن إياس بن مـضارب فى الشـرط قد أحاط بالـسـوق والقـصر، فـأخـذ مـعـه من أصـحابه نحـو مئـة دارع، وقد لبـسوا عليـها الأقـبـية، فـقال له أصـحابه: تجنب الـطريق، فقـال: والله، لأمرن وسط الـسـوق بجنب القـصـر، ولأرعـبن عـدونـا، ولأرينـهـم هـوانــهـم علينـا، فـسـار علـى باب الفـيل، ثـم عـلى دار عـمرو بـن حـريـث، فلقيهم إياس بن مـضارب فى الشرط، مظهـرين السلاح، فـقال: مـــن أنتـم؟ فـقـال إبراهيـم: أنا إبـراهيم بن الأشـتـر، فـقـال إياس: مـا هـذا الجـمـع الـذى معـك؟ ومـا تريـد؟ ولـسـت بتـاركـك حـتـى آتـى بـك الأمـير، فقال =

أتُوعِـــدنَا ربيـــعـــةُ فـى إياسٍ وأيَّ الدهـرِ أوعـدنَا قـبـيـلُ
حـــروريٌّ تكنفـــهُ المـــوالى وعضٌّ برأســه سيفٌ ثقـيلُ[١]
وإبراهـيمُ مـــعـــتـــزٌّ هِـزَبْرٌ لهُ فـئـةٌ تقـولُ كـمَـا يقـولُ[٢]
يمـــانيَـــةٌ تـذود الناسَ عـنهُ وتخطرُ فى جوانبهَا الفـحولُ[٣]
حـمى الضـيفـانَ إذ جـالتْ نزارٌ كمَـا جالتْ منَ البقـرِ الوُعولُ[٤]
فَلـوْلاَ كـــفُّـــهُ عنكـمْ لكنـتمْ كمـنْ غالتْ منَ الأقـوامِ غُولُ[٥]
لأسْـرَت حِـمْـيـرٌ وبنو أبيـهـا قُـضـاعـةُ والفـراتُ لـهـمْ دليلُ

* * *

وقال سراقة البارقى:

أُقـاتلُ مـهـديًا وتلكَ سـفـاهةٌ وأمـرٌ بدَا لى غـيُّـهُ مـتـفـاقمُ[٦]

= إبراهيم خلِّ سبيلا، قال: لا أفعل، وكان مع إياس بن مضارب رجل من همدان يقال له أبو قطن، وكان يكرمـه، وكان صديقا لابن الأشـتر، فقال له ابن الأشـتر: ادنُ منى يا أبا قطن، فدنا منه، وهو يظن أن إبراهيم يطلب منه أن يشفع فيه إلى إياس، فلما دنا منه أخذ رمحا كان مـعه، وطعن إياسا فى ثغرة نحره، فـصرعه، وأمر رجلا من قومـه فأخذ رأسه، وتفرق أصحاب إياس».

(١) حرورى: خارجى نسـبة إلى حروراء التى خرجوا فـيها على الإمام على، فـقاتلهم وهزمهم بها.

(٢) هزبر: أسد، وفى ش: «تقول» بدلا من «يقول».

(٣) خطر الرجل: اهتز فى مشيه وتبختر.

(٤) الضيفان: الضيوف.

(٥) غال: اغتال.

(٦) المهدى: يقصد المختار الثقفى: والغى: الضلال.

فلمَّــا أتتنـا شيــعــةُ اللهِ تدَّعى لهَـا لهبٌ تبَيـضٌّ منهُ المَقـادمُ[١]

فـدارتْ رَحـانا ساعـةً ورحـاهمُ وطاحَتْ أكفٌّ بيننَا وجَـماجمُ[٢]

أُطَفِّـرُ حـيطان السبــيعِ وإننى بأبوابِ حيـطانِ السبيعِ لَـعالمُ[٣]

* * *

هذا آخر مـا وجدته بخط الحسـين بن على النَّمَرىّ[٤] يقول: هذا آخـر ما وجـدته بخط السكرىّ؛ يقـول: هذا آخر مـا وجدته فى كـتـاب ابن حبـيب؛ والحمد لله.

ووجدت بخط[٥] الشيخ أبى أحمد بعد ذلك:

قابلت بجميع[٦] ما مـضى، وأعلمتُ عليـه، وكتبت مـا لم يكتب فـيه فى الحواشى[٧].

ووجدت بخط ابن الأعرابىّ بعد ذلك.

---

(١) المقادم: النواصى، أى هولها تشيب منه الرءوس.

(٢) طاح: هلك وسقط.

(٣) «أطفر» كذا فى ش وأطفر: أثب، وفى ص: «أظفر».

(٤) ص، ش: النميرى، وفى نزهة الألبا والفهرست وبغية الوعاة: النمرى.

هـ: «أبو عبـد الله الحسـين بن على (النمرى) يعـرف بابن الأعرج، له كتـاب (اللمع) فى اللغة.

(٥) ش: «بخط» فى موضع «ووجدت بخط».

(٦) «بجميع» كذا فى ش، وفى ص: «بجمع».

(٧) «يكتب فيه فى الحواشى» كذا فى ش، وفى ص: «يكن».

وقال سراقة بارق:

أعينيَّ جودَا بالدموعِ السواكبِ وكونَا كواهي شَنَّة مع راكب[١]
فإنَّ سرورَ العيشِ قد حيلَ دونهُ ومَا الشرُّ في الدنيَا بضربة لازب[٢]
وللأزد فابكي إذ أصيبتْ سَراتهمْ فقُبحًا لعيش بعدَ ذلكَ خائبَ[٣]
نُرجِّي خلودًا بعدهمْ وتغُولُنَا غوائلُ موت أو قراعُ الكتائبَ[٤]
وكنَّا بخير قبلَ قتلِ ابنِ مخنف وكلُّ امرئٍ يومًا لبعضِ المذاهبَ[٥]
أمَار دموعَ الشيبِ منْ أهلِ مصرهَ وعَجَّلَ في الشُبَّانِ شَيْبَ الذوائبَ[٦]
وقاتلَ حتى ماتَ أكرمَ ميتة وخرَّ على وجهِ كريمٍ وحاجبَ[٧]

(١) «أعيني» كذا في ط، وفي ص، ش: «عيني» فقط، والخرم جائز في أول بيت من الطويل.

و «كواهي» كذا في ط، وفي ص، ش: «كوهي». الشنة: القربة الخلق.

و «مع راكب» كذا في ط، وفي ص، ش: «خرز راعب».

(٢) لازب: لازم.

(٣) و «للأزد» كذا في ط، وفي ص، ش: «وللأسد» «إذ» كذا في ش، وفي ص: «إذا» وهو تحريف، والشطر الأول في ط: «على الأزد لما أن أصيب سراتهم» وفي ط: «فنوحا» في موضع «فقبحا».

(٤) «نرجي» كذا في ط، وفي ص، ش: «أرجي» وفي ط: «الخلود» في موضع «خلودا» وفي ط: «وتعوقنا عوائق» في موضع «وتغولنا غوائل» وقراع: مقارعة ومحاربة.

(٥) أي كل امرئ سيموت يوما ميتة ما.

(٦) أمار: أسال، ومعنى البيت أن الخطب كان من الفداحة بحيث جعل الكبار ينسون حلمهم ويبكون، وشيب رءوس الشبان.

(٧) ط «خد» في موضع «وجه».

عـشيَّـةَ حـالَ الصفُّ إلا عصـابةً مِنَ الأزد تمشى بالسيوف القواضب[1]
فيَا عينُ بكّى مخنفًا وابنَ مخنف وفرسانَ قومى قُـصرةً وأقاربى[2]
وبعـدَ جبــاةَ فى أرومـةِ بارقٍ وليس المنايَا مُرضيات المُعاتب[3]
فُجِـعْنَا به لاَ وانيًـا متـوانـيًـا ولا عاجزًا عندَ الأمـور النوائب[4]
ولوْ سُـئلتْ منـهُ شنوءةُ فـديةً لأعطَوا نفوسَ القوم بعـدَ الحرائب[5]
لمنْ لا يخافُ القـومُ سَقْطةَ رأيه إذَا زاغَ أصحابُ الحُلوم العوازب[6]
وَسائلهُ مـعْطَى الجزيلِ ولمْ تكنْ تُهـيِّبـهُ قـدما عظامُ المـواهب[7]
وكـان هَيُـوبا للـفـواحشِ كلهَـا وليسَ لأبطـالِ الرجـالِ بِهَــائب

---

(١) «عـشـيـة حـال الصف» كـذا بالحـاء فى ص، وبالجـيم فى ش، وفى ط: «وضـارب عنه المـارقـين» و «الأزد» كـذا فـى ط، وفى ص، ش: «الأسـد» و «القـواضب»: القـاطعـة، والمعنـى أن الجند هـربـوا إلا جـمـاعـة مـن الأزد، سـلـت السـيوف، وأخـذت تحـارب بها.

(٢) تقول العرب: هو ابن عمى قَـصْرَةً وقُصْرَةً ومقصورةً وقـصيرةً: أى دانى النسب، وفى هـ: «قصرى».

(٣) الجــابى: الـذى يجـمـع المـال، أو الـذى يجـمع الـمـاء فى الـحـوض للـورد؛ يـريد الأغنـياء، و «بـارق» مـوضعها فـراغ فى ص، ش، واختـار الشـيخ الشـنـقـيطى هـذه الكـلمة لملئه.

(٤) «فجعنا» كذا فى ش، وفى ص: «فعجنا».

(٥) الحرائب: جمع حريبة، وهى الشدة.

(٦) العوازب: الشوارد.

(٧) معنى البيت: إنه كريم يجزل العطاء لمن يسـأله، ولا يخاف من عظائم الهبات، منذ قديم الزمن، بل يهبها لمن يسأله.

ولمْ يكُ ممنْ يمـلأُ الروعُ صدرهُ | إذَا راغَ أهلُ الخبِّ رَوْغَ الثعالبِ[١]
وإياسَ فـابكيه إذا اشـتجـرَ القنا | لدى الرَّوْعِ أوْ كَلَّتْ رِقاقُ المضاربِ[٢]
وحـادَ رجالٌ عنْ رجـالٍ وأبرزتْ | نواجـذَهَا يومَ الطعانِ مَـرَازِبى[٣]
وإنْ ذُكـرَ الـحلمُ المـزيِّنُ أهلهُ | فـمَـا الحلمُ عنهُ يومَ ذاكَ بغـائبِ
وكانَ زعـيمَ القومِ فـيمـا يَنُوبهمْ | إذا عيَّ منْ يعنونهُ بالمـخاطبِ[٤]
وكـانَ لهُ فى ذِرْوةِ الحىِّ مَنصبٌ | وليسَ كمنْ عَضَ الفرَا بالمشاعبِ[٥]
ولا خـاملٍ فيـهم إذا مـا نسَـبْتـهُ | ولـكنـهُ منْ بـارقٍ فـى الذوائـبِ
فـلاَ ولدتْ أنثـى ولا آبَ غـائبٌ | إلى أهـلهِ إنْ كـــانَ ليسَ بـآئبِ

---

(١) الخب، بالكسر: الخداع.

(٢) إياس: كذا وردت الكلمة فى جميع الأصول، ولعلها محرفة عن مرداس، أو شبهها، وهو بطل من أبطال بارق، وفى ش: «فابكه» فى موضع «فابكيه» واشتجر: تشابك وتخالف.

(٣) النواجذ: الأضـراس الخلفية، أو أصـول الأسنان، والمرازب: جمع مـرزبان، وهم رؤساء الفرس، يريد إذا اسـتمر القتال، واشـتبكت الرماح، وكلت السيـوف، وهرب الرجال من الرجال، وأبدى القواد عن نواجذهم، وعضوا عليـها، كى يصبروا ويثبتوا؛ فى ذلك الوقت اذكرى مرداسا وشجاعته فى مثل هذه المواقف.

(٤) «زعيم» كذا فى ش، وفى ص: «رعـيم» وفى ص، ش: «يعبوبه» وهـو خطأ، والمعنى أنه إذا حـصر رئيـس القـوم الـذى يلجـأ إليـه فـى الـكلام، فـإنـه ينـطـق عـن قـومه، ويـكون قوله الفصل.

(٥) الفرا: مقصور الفراء، جمع فروة، والمشاعب: الطرق، جمع مشعب.

يقول: إن له أعلى الدرجات فى قـبيلته، فلا يشبه العـمال أو الصناع الذين يفرون فى الطرق، وكلنا يعرف أن العرب كانوا يترفعون عن العمل فى الصناعات.

وغَـرْقَـدةَ القـرمَ الذى بذ قـومـهُ غلامًا إلى أنْ شابَ غيرَ الأكاذبِ[١]

وأخصبهمْ رحلا وفى السفرِ عصمةٌ إذَا كانَ زادُ القـومِ ما فى الحقائبِ

وآباهمُ للـضـيـمِ حـينَ يُسـامُـهُ إذا قيدتِ النَّوْكَى كقَوِدِ الجنائبِ[٢]

وما الليثُ إذْ يعدو على ألفِ فارس وتحتَ هوادى خيلهمْ ألفُ ناشبِ[٣]

مُـواز ولا عـدلٌ لـعـروةَ إذْ غـدا على صفٍّ صِفِّينَ العظيمِ المواكبِ[٤]

ولا جُنْدبًا إذ صالَ بالسيفِ صولةً على ساحرٍ فى حافةِ السوقِ لاعبِ[٥]

---

(١) «غرقـدة» كذا فى ش، وفـى ص: «غرقده» وقـد كان غـرقدة هذا فى جـيش سعـد بن أبى وقاص، وعندما اضطر سعد إلى خوض دجلة، لفتح المدائن اقتحمه، ولم يغرق من الجيش أحد، يقول الطبرى فى حوادث عام ١٦هـ: «إنهم سلموا من عند آخرهم إلا رجلا من بارق يدعى «غرقدة» زال عن ظهر فرس له شقراء، كأنى أنظر إليها تنفض أعرافها عريا، والغريق طافٍ، فثنى القعقاع بن عمرو عنان فرسه إليه، فـأخذ بيده، فجره حتى عبر، فقال البارقى، وكان من أشد الناس: أعْجزَ الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع، وكان للقعقاع فيهم خئولة» والقرم: السيد.

(٢) النوكى: الحمقى، والجنائب: جمع جنيبة، وهى الدابة، تقاد بجوار أخرى.

(٣) الليث: الأسد، والهوادى: الأعناق، والناشب: صاحب النشاب، أى السهام.

(٤) لعله يقصـد عروة بن الجعد البـارقى الذى نفاه عثمـان بن عفان إلى الشام مع جـماعة من أصدقائه، لسبهم سعيد بن العاص، والى الكوفة، فذهبوا إلى معاوية، ثم إلى عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد، الذى هددهم وأرغمهم على الاعتذار للخليفة، وقد كان عروة فى جيش خالد بن الوليـد فى العراق عام ١٢هـ، وعندما خـرج الإمام على إلى العراق التحـقوا به، وحاربوا فى صفه.

(٥) جندب بن زهير الغامدى، الذى كان مع عروة بن الجـعد فى المنفى، وقصة السـاحر رواها الطبرى فى حوادث عام ٣٠هـ، قال:

«وأتى الوليد بساحر، فأرسل إلى ابن مسعـود يسأله حدَّه، فقال: وما يدريك أنه ساحر؟ =

وكـانَ أخَـا ليلٍ طـويل قـيـامـهُ ... إذَا النومُ ألهى حبَّـهُ كلَّ جانبِ[١]

وقـيسُ بنُ عوفٍ فـاندُبيـه بعَبـرة ... إذَا الخيلُ جالتْ بالرجال عصائبِ[٢]

وإنْ ذَهلتْ نفسيَ وأُذهبَ داؤهَا ... فمَـا داءُ نفسى منْ حكيمٍ بذاهبِ

حَمَى صَقْعَبٌ تحتَ اللواء ذِمـارَهُ ... بضربٍ كأفواهِ اللقاحِ السوارِبِ[٣]

* * *

= قال: زعـم هـؤلاء النفـر لنفـر جاءوا به أنـه ساحـر، قـال: وما يدريكم أنه سـاحر؟ قالوا: يزعم ذاك، قال: أساحر أنت؟ قال: نعم، قال: وتدرى ما السحر؟ قال: نعم، وثار إلى حـمـار، فجعل يركـبه من قِـبل ذَنَبه، ويريهم أنه يخـرج من فمه واسـته، فـقال ابن مسـعود: فاقتله، فـانطلق الوليد، فنادوا فى المسـجد: إن رجلا يلعب السحـر عند الوليد، فأقبلوا وأقبل حندب، واغـتنمها يقول: أين هو؟ أين هو؟ حتى أراه، فضربه، فـاجتمع عبد الله والوليد على حبسه، حـتى كُتب إلى عثمان، فأجابهم عثمـان أن استحلفوه بالله ما علم برأيكم فيه، وإنه لصادق بقوله فيما يظن من تعطيل حدِّه، أو عزروه وخلوا سبيله» وقد قتل جندب فى موقعة الجـمل، عام ٣٧ هـ، فقد كان رأس أزد العراق، فتـقدم لمبارزة رأس أزد الشام، فقتله الشامى.

(١) جانب بصيغة اسم الفاعل: هو المجتنب المحقور، (انظر تاج العروس).

(٢) لم أستطع معرفتـه، أما الذى كان فى موقعة صفين فهـو قيس بن سعد الأنصارى الأزدى، «فاندبيه» كـذا فى شر، وفى ص: «فاندبنه» وعصـائب: أى جماعات، وأصلها عـصائبى، فخففت بحذف الياء.

(٣) «صقعب» كذا فى ش، وفى ص: «صعقب» والاولى أحسن، لانه قد يكون علما منقولا من «الصقعب، أى الـطويل» وفى هـ «صقعب: هو ابن مخنف، أخو عبد الرحمن بن مخـنف» كـأفواه: كـذا فى الأصـول، ولـعلـه مـحـرف عـن أفواق، وهى جمع فيـقة، بالكسر، اسم اللبـن يجتـمع فى الضرع بيـن الحلبتـين، واللقاح: جـمـع لقحـة أو لقوح، وهى النـاقة الحـلـوب، الغـزيرة اللبن، والسـوارب: جـمع سـاربة، وهـى الجـارية، صفة للأفواق.

كان الحجاج بن يوسف يقول: من أراد أن يبصر بالخيل[1] فليرو قصيدة بارق هذه؛ قول سراقة:

زعمتْ ربيعةُ وهْيَ غيرُ ملُومة	أنى كبِرتُ وأنَّ رأسيَ أشْيبُ
ورأتْ عذارى أدركتْ فى بارقٍ	فتخافُ منْ هولِ الجَنانِ وترهبُ[2]
ويشُفُّها أنْ لا تزال يروعها	بكرٌ تعرِّضُ نفسها أوْ ثيِّبُ[3]
وكأنهنَّ إذَا خرجنَ لزينة	وبرزنَ منْ غمِّ الحوائط ربْربُ[4]
منْ كلِّ غرَّاء الجبين كأنها	رشأٌ أحمُّ المُقلتين مُربَّبُ[5]
تُجرى السواكَ على نقىٍّ لونُهُ	مثلُ المُدامة ريحُهُ أوْ أطيبُ[6]
وتقولُ قدْ أهلكتَ مالكَ كله	فلبئسمَا تَشْرى الإماءَ وتخطبُ[7]
لم تدْرِ فيما قد مضى من عمرها	أنَّ الجوادَ يصيد وهو مُثلَّبُ
والمرءُ بعدَ الشيبِ يغشى رأسَهُ	يلهو إلى غزلِ الشبابِ ويطربُ

(١) فى ص، ش: «يبصر الخيل» وأظنها خطأ.

(٢) «عذارى» كذا فى هـ، وفى ص: «غذارا» وفى ش: «عذارا» والمعنى أنها إذا رأت العذارى تكبر تخاف أن أتزوجهن، فينجبن الأولاد الشجعان الذين يحاربونها.

(٣) يشفها: يهزلها، والمعنى أنه قد أضناها خوفها الدائم من اللائى يعرضن أنفسهن علىَّ من الأبكار والثيبات للزواج.

(٤) الغم: هنا بمعنى الظل، والحوائط: البساتين، والربرب: القطيع من بقر الوحش.

(٥) الرشأ: ولد الظبية، وأحم: أسود، ومربب: مُرَبى ومُنَشأ.

(٦) المدامة: الخمر.

(٧) كذا فى ش، وفى ص: «يشرى الإماء ويخطب» بالياء.

والخيلَ تعذلني على إمساكهَا ... وتقولُ قد أهلكتَ مالا يُحْسَبُ
فحلفتُ لا تنفكُّ عندي شَطْبَةٌ ... جرداءُ أو سَبْطُ المَشدة سَلْهبُ[(١)]
سَهْبُ الجِراءِ إذَا عَوَيْتُ عنانهُ ... سُحُقٌ إذَا هُضمَ الرعيلُ المُطْنبُ[(٢)]
أما إذَا استقبلتهُ فيقودُهُ ... جذعٌ علا فوقَ النخيلِ مُشذَّبُ
ومُعرَّقُ الخدينِ رُكِّبَ فوقهُ ... خُصَلٌ وسامعةٌ تظلُّ تقلَّبُ[(٣)]
وترى اللِّجامَ يضِلُّ في أشداقهِ ... حتى يكادَ الفأسُ فيه يذهبُ[(٤)]
وترى مكان الربْوِ منهُ واسعًا ... مُتنفَّسٌ رحْبٌ وجَنْبٌ حَوْشبُ[(٥)]
ولهُ جِرانٌ كالقميصِ يَزِينهُ ... رَهَلٌ به أثرُ الجِلالِ ومَنكبُ[(٦)]

---

(١) الشطبة: الفرس السبطة اللحم، وجرداء: قليلة الشعر، والسبط: الطويل المسترسل، والمشدة: يقصد بها العنق، وقد تكون العرف، والسلهب: الطويل والعظيم الجسم.

(٢) في هـ: «سهب: واسع» الجراء: العدو، وعوى العنان: عطفه، وسحق: طويل عظيم، والرعيل: الجماعة من الخيل، ومعنى البيت أنه إذا هزلت الخيل وبدا ضمورها، فإنه يظهر من بينها لعظم هيكله وطوله.

(٣) معرق: هزيل تظهر عروقه، والخصل من الشعر أي من عرفه، والسامعة: الأذن.

(٤) الأشداق: جمع شدق، وهو مَشَقٌّ فم الفرس إلى منتهى حد اللجام، والفأس: الحديدة القائمة في الحنك من اللجام.

(٥) الربو: النفس العالي، والمتنفس: الأنف، والحوشب: العظيم، الكبير.

(٦) الجران: المريء والحلقوم، أي واسع المريء، والرهل: استرخاء اللحم، والجلال: جمع جُل، وهو للفرس كالثوب للإنسان.

وكـأنَّ فـارسـهُ على زُحْلُوفـة	جـرداءَ للولْدان فـيـهَـا ملعبُ(١)
أمّـا إذا اسـتـدبَرْتهُ فـتسُـوقُـهُ	رِجْلٌ يُقمِّصُـهَا وَظيفٌ أحْدبُ(٢)
زجَّـاءُ عـاريةٌ كـأنَّ حَـمـاتهَـا	لمـا سـرَوْتُ الـجُلَّ عنَّا أرنبُ(٣)
وإذَا تصفَّـحهُ الفوارسُ مُعْـرِضًا	فيقالُ سرحانُ الغضى المُتذئِّبُ(٤)
وإذَا يُقـادُ على الـجَنيـبـةِ بلَّهُ	حتى يُحَمَّ من العـنان المُجْنَبُ(٥)
وترى الحَصى يشقى إذَا مَا قـدتهُ	مـنهُ بـجـندل لابـة لَا يـقلـبُ(٦)
صُمٌّ حـواميـهَـا كـأنَّ نشـورهَا	منْ نِقسِ مصرٍ عن أمِير يُحجَبُ(٧)

---

(١) الزحلوفة: المكان المنحدر الأملس.

(٢) الوظيف: مـا بين الركبـة إلى الرسغ؛ يقـول: إذا نظرت إليـه من خلف رأيت رجله التى تدفعه إلى الأمام ذات وظيف أحدب، يخالف لون سائر جسده، فكأن الفرس لابس قميصا إلى وظيفه.

(٣) الزجاء: الرفيعة، وحماة الساق: عضلتها، سروت الجل: ألقيته عنها.

(٤) معرضا: أى تصفحه الفرسان مائلا منعطفا، والسرحان: الذئب، والغضى: نوع من الشجر يوجد فيه الذئب، والمتذئب: الشبيه بالذئب، فى سهولة انعطافه والتوائه.

(٥) الجنيبـة: الدابة تقاد إلى جانب أخـرى، ويحم: فى الأصول يجم، تحـريف، والمعنى: يغسل بالحميم، وهو هنا العرق الساخن، والـعنان: لجام الفرس، ويحتمل أن يكون معناه الشوط، أو الجهد، والمجنب: المقود.

(٦) الجندل: الحجارة. واللابة: الحرة الملبسة حجارة سودا.

(٧) حوافر الفرس شديدة صلبة ولحمها أسود شـديد السواد، كأنها مداد أمير من أمراء الأمصار ذوى الحجاب الذين يمنعون عنهم الناس، يريد مداد أمير مرقه.

والحوامى: ميامن الحافر ومياسره، ونسر الحافر: لحمه، وفى ش: «أسير» بدلا من «أمير» وهو تصحيف.

وكـأنمـا يسـتنُّ فـوق مُـتـونهـا ... بينَ السـنابكِ والأشاعرِ طُحْلبُ[(١)]
أخْلصتُـهُ حَـولا أُمسِّحُ وجـهـهُ ... وأخو المَواطنِ مَنْ يصونُ ويندُبُ
وجـعلتُـهُ دونَ العـيـالِ شـتـاءهُ ... حتى انجلى وهوَ الدخيلُ المُقْرَبُ[(٢)]
والقـيـظَ حـينَ أصـونـهُ فى ظُلّة ... وَحْشيُّـهَا قبلَ الغروبِ مُـثقَّبُ[(٣)]
ولهُ ثـلاثُ لقـائـحٍ فى يومـه ... ونَخـيـرُهُ معَ لـيله مُـتـأوِّبُ[(٤)]
حـتـى إذَا أثنى وصـارَ كـأنهُ ... وَحَـدٌ برابيـةٍ مُـدِلٌّ أحْـقبُ[(٥)]

---

(١) استن: جرى، والسنابك: جمع سنبك، وهو مقدم الحافر، والأشاعر: ما حول الحافر من الشعر، يريد أن الشعر انتشر حول حوافره، فأشبه الطحلب.

(٢) وقد جعلت الفرس أقرب إلى من عيالى فى الشتاء كى أدفئه، حتى ذهب الشتاء، وكان الفرس قريبا مكانه من مكانى.

(٣) الظلة: المكان المظلل، والوحشى: الجزء الذى يسلمك إلى الخارج، ومثقب: مضاء، يريد أن يقول: إنى أحفظه صيفا فى مكان مظلل عناية به، وقبيل أن يرخى الليل سدوله أنير ما حول الظلة، حتى يرى اللصوص الضوء، فيظنون بى السهر والتيقظ، فلا يحاولون سرقته، ومكان «الغروب» بياض فى الأصلين، فاختار له الشنقيطى هذه الكلمة.

(٤) اللقائح: جمع لقوح، وهى بمعنى لقحة، واللقوح: صفة للناقة الحلوب الغزيرة اللبن، ومعنى البيت: أن هذا الفرس كريم على، وأنا أطعمه لبن ثلاث لقائح، وهو ينام نوما متصلا بالليل لا يزعجه شىء، فنفسه متردد متصل طول الليل، وفى ص «نفيره» وفى ش: «فقيره» بدلا من «نخيره» وهو تصحيف.

(٥) أثنى: أسقط رواضعه وذلك إذا استتم الثالثة ودخل فى الرابعة، والوحد: المنفرد، والمدل: الجرىء، والأحقب: حمار الوحش، سمى بذلك لبياض فى حقويه.

راهنتُ قومي والرِّهانُ لَجاجةٌ ... أحْمَى لمُهْري أنْ يسبَّ وأرغبُ

في سَبْقة جادوا بهَا أو دعوة ... يومَ الرهانِ وكلَّ ذلكَ أطلُبُ

فنقَلْتُهُ نقلَ البصيرِ ولمْ أكنْ ... ممنْ يُخادعُ نفسهُ ويكذِّبُ(١)

ألقى عليهِ القرتَّينِ جلالهُ ... فيفيضُ منه كلُّ قرنٍ يَسْكبُ(٢)

وأردُّ فيهِ الماءَ بعدَ ذُبوله ... حتى يعود كأنهُ مُستصعَبُ(٣)

قَردُ الخصيلِ وفي العظام بقيَّةٌ ... من صنعة قدَّمتُهَا لا تذهبُ(٤)

وتواقفوا بالخيلِ وهي شوازبٌ ... وبلاؤهنَّ عليهمُ مُتغيِّبُ(٥)

بتنَا برأس الخطِّ نَقْسمُ أمرنَا ... ليلا يجُولُ بنَا المراءُ ويَهْضبُ(٦)

حتى إذَا طَمَس النجومَ وغمَّهَا ... وردٌ يُغيِّبُ لونهَا متجوِّبُ(٧)

صاحوا بهَا ليَخفَّ حَشْوُ بطونها ... وقلوبُهمْ منْ هولِ ذلكَ تضربُ

---

(١) «نفسه» كذا في هـ، وفي ص، ش: «نفعه».

(٢) «منه»: كذا في ش، وفي ص: «من» والقرتان: البردان، أي الغداة والعشي، والمعنى أنه يلبسه الجلال وقت البرد ليدفئه، فيظهر منها قرناه، يسيل عليهما العرق، لسخونة جسمه.

(٣) عندما يذبل من كثرة العرق ويفتر: أغسله بالماء، فينتعش ويسترد قوته ونشاطه.

(٤) «قرد الخصيل» كذا في أساس البلاغة، وفي ص، ش: فبدا الحصير، وقرد الخصيل، أي ذو ذنب متلبد الشعر، وصنعة الفرس: حسن القيام عليه بالتغذية والتربية.

(٥) «شوازب» كذا في ش، وفي ص: «سوازب» والشوازب: الضامرة.

(٦) المراء: النقاش والجدل، ويهضب: يشتد ويسرع.

(٧) متجوب: منتشر، والورد: الأحمر، يقصد به الفجر.

وسَـرَوْا أجلَّتهَـا وسُرِّىَ صـفُّهَـا — وكأنما يجرى علـيهَا المُذْهَبُ[١]
وجـرتْ له طيــرُ الأيامنِ غُـدوةً — ولهنَّ طـيـرٌ بالأشـائم تَـنْعَبُ[٢]
صاحَ ابنُ آوى عن شِمال خُدودها — وجـرى لهُ قبَـلَ اليمـين الثـعلبُ
عجَّلتْ دفـعَتَهـا وقلتُ لفارسى — راكضْ به إنَّ الجـوادَ المُـسْـهَبُ
وأبى علىٌّ وقد جرى نصفَ المَدى — والخيلُ تأخذهَا السياطُ وتُكْلَبُ[٣]
وغـلامـهُ مُـسْـتقـبِّضٌ فى مَـتْنه — بمكـانه منهنَّ رأىٌ مُـعْــجَبُ[٤]
حـتى أتى الصَّـفَّـيْنِ وهوَ مـبـرِّزٌ — بمكانه رأىُ البـصـيـرِ مُغـرِّبُ[٥]
اسـتأنَسَ الشـرفَ البعـيدَ بطرْفـه — وكـأنهُ سِـرْحـانُ بِـيـدٍ يَلحَبُ[٦]
ولكلِّـهنَّ عـصــابةٌ مـنْ قـومــه — ولهُ مِنَ ابنـاءِ القبـائـلِ مَـوْكبُ
يغـشَــوْنهُ، ويقـولُ هـذا سـابقٌ — متـفرِّسٌ فى الخلْقِ أو متـعجِّبُ

---

(١) كأن الخيل والشفق منعكس على ظهورها مُذهبة.

(٢) نعب: صاح، يريد أن يقول: إن فأل فرسه كان حسنا، وفأل الأفراس الأخرى كان سيئا، وهذا هو المراد من البيت التالى أيضا.

(٣) كلب الحصان: ضربه بالكلاب، أى المهماز.

(٤) الرأى هنا بمعنى النظر، أى كان النظارة معجبين بفرسه، وهذا الإعجاب ظاهر فى أعينهم.

(٥) مغرب: متباعد، أى إن فرسه كانت فى المقدمة، ولذلك كان المتفرج يحتاج إلى مد بصره حتى يراها.

(٦) الطرف: العين، والبيد: جمع بيداء، وهى الصحراء. ويلحب: يسرع.

وأذُبُّ عنهُ المُــرْقصــين وراءهُ ... حذرَ الفوارسِ وهُو ريحٌ يُجْنَبُ(١)
هذا لتــعلمَ بــارقٌ أنى امــرؤٌ ... لى فى الســوابق نظـرةٌ لا تكذبُ
وتبـيَّنَ الأقـيـالُ مـا أحـلامُـهمْ ... والحلمُ أردؤهُ المُسامُ المُغْرَبُ(٢)
والناسُ منـهمْ منْ يُعــاشُ برأيه ... ومــعـذَّبٌ يشــقى به ويُعــذِّبُ
فــدعِ المِـراءَ وواف يـومَ رِهاننَا ... بطِمِــرَّة أو ضـامـرٍ لا يَتْــعبُ(٣)

* * *

وقال سراقة:

أبتْ عــينُ ابن عـمِّكَ أنْ تنـامـا ... بجنب الطفِّ واحْـتَمَّ احتمـامَا(٤)
وقــالتْ عـرْسُــهُ مـاذَا بعــشق ... ولكنْ نـظرةٌ كـانتْ غـرامَـا(٥)
صـرفتُ الوجـهَ عنْ نـظرٍ إليـهَـا ... وألقتْ دُونَ سُنَّـتـهَـا قــرامَـا(٦)
كــلانَا خــائفٌ يخــشـى أباهَا ... وطعنًا منْ عـشـيـرتهَـا وذامَـا(٧)

---

(١) أذب: أدفع، والرقص: نوع من سير الخيل، والمرقصون: الفرسان الذين يركبون الخيل الراقصة، وفى ص، ش: «راح» فى موضع «ريح» وهى غير واضحة المعنى.

(٢) «الأقيال» كذا فى ش، وفى ص: «الأقتال» والقيل: ملك اليمن، والمسام: الشارد المتروك.

(٣) الطمرة: الفرس الجواد، وقيل المستعد للوثوب، و «لا يتعب» كذا فى ش، وفى ص: «لم يتعب».

(٤) الطف: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق.

(٥) العرس: العروس.

(٦) «عن» كذا فى ش، وفى ص: «من» والسنة: الصورة والوجه، والقرام: الستر فيه رقم ونقوش.

(٧) الذام: العيب.

بصُرتُ بهَا تكلّمُ جارتَيْهَا فلا دلا عَتَبْتُ ولا قَوامَا[١]
رأيتُ غَمامةً فى مستكفٍّ علَتْ فى عارضٍ كَسف جَهامًا[٢]
يضىءُ دُجى الظلام بَريقُ فيهَا وتُبصرُ حين تبْتسمُ ابتسامَا
أقاحىَ قدْ تصبَّبَ منْ نداهُ كأنَّ أُصولهُ عُلّتْ مُدامَا[٣]
كُمَيْتَ اللون عتَّقهَا عظيمٌ فلمْ يَقْربْ لهَا حجَجًا ختامًا[٤]
تناساهَا على طرب إليهَا إذا ذَكرَ المَشاربَ والنَّدامى
تُدلُّ بحسنهَا وسْطَ العذارَى وتَستغْنى فمَا تبغى لثامَا[٥]
وأردافٌ تنوءُ بهَا وخَصْرٌ كطىٍّ السِّبِّ ينهضمُ انهضامًا[٦]
بهَا يلهو الضجيعُ إذا تعالى، وغارَ النجمُ، فاقتحم اقتحامًا[٧]
وأعْيبُ شانها أنى هَيوبٌ إذَا مَا جئتُ أكتمُ اكتتامَا[٨]

---

(١) عتب: سخط.

(٢) المستكف: السحاب المحيط بالغمامة أو المستدير، والعارض: السحاب المعترض فى السماء، والكسف: المتقطع، ويقال العريض.

(٣) الجهام: السحاب الذى لا ماء فيه، والأقاحى: جمع أقحوان: وهو نبت طيب الريح، حواليه ورق أبيض، ووسطه أصفر، وعُلَّ: سقى، والمدام: الخمر، أى كأن أصول أسنانها أسقيت خمرا.

(٤) الكمتة: لون بين السواد والحمرة، والحجج: جمع حجة، أى سنة.

(٥) ش: «تبقى» موضع «تبغى» وهو تحريف، واللثام: النقاب.

(٦) السب: الشقة الرقيقة من الكتان أو القطن.

(٧) تعالى: أى ارتفع ونهض إليها، كما قال امرؤ القيس: «سموت إليها» وقد يكون بمعنى تعلّى: أى هجم على القوم بدون إذن، ويرشحه قوله بعده: «فاقتحم اقتحاما».

(٨) «شانها» كذا فى ش، وفى ص «شافها» وهو تصحيف.

وأنَّ الرأسَ شَيَّبَهُ اطلاعى بلادَ الحربِ مُلْبَسةً قَتامَا[١]

أُعالجُ صَعْدَةً وأقودُ مُهْرًا طويلَ المتن يَستوفى الحزامَا[٢]

ومنْ يَلقَ الفوارسَ كلَّ يومٍ أطاعنْ أوْ أُلازمْهُمْ لزامَا[٣]

وكنتُ إذَا الهمومُ تكنَّفتْنى لتُسْهرنى جعلتُ لهَا نظامَا[٤]

ولستُ بمُحْرز مالى بنذر ولوْ لمْ يُبق لى أبدًا سوامَا[٥]

ولستُ أُرشِّحُ الأطفالَ منهَا ليُدركَ نسلُهَا عامًا فعامَا[٦]

ولكنى أقولُ لحالبيهَا أشيعَا أنَّ فى مالى ذمامَا[٧]

وأُقْرِضُها ابنَ عمى إنْ أتانى وأُقْرى الضيفَ أعظمَها سَناما

وخَلْف خالف أصبحتُ فيه يُذكِّرنى حياةً أوْ حُلامَا[٨]

وإخوانٍ فُجِعتُ بهمْ فأُضْحى كمجروح به يشكو كلامًا

وقدْ أَحْمِى الحقيقةَ كلَّ يومٍ وتحمى الأزدُ أنفى أنْ أُرَامَا[٩]

---

(١) القتام: غبار الحرب.

(٢) الصعدة: القناة المستوية، ويستوفى الحزام: أى غليظ ممتلئ، فيملأ حزامه.

(٣) يقول: من كان يلقى الأبطال كل يوم مرة، فإنى ملازم للطعن والضرب لا أبرح مكانى.

(٤) كذا فى الأصل، والنظام: ملاك الأمر، يريد لا أجعل الهموم تستبد بى، بل أملكها، وقد تكون الرواية فى الأصل: «كظاما» وهو سداد الشىء.

(٥) السوام: الإبل التى تترك لترعى.

(٦) أرشح: أربى، أى إنى لست بخيلا أربى أطفالها، بل أذبحها للضيوف.

(٧) الذمام: الحق، أى أذيعوا أن للضيف حقا فى إبلى.

(٨) «حياة» كذا فى ش، وفى ص «حباة» بالباء.

ومعنى البيت أنى أعيش فى زمن سقيم شرير يجعلنى أذكر الأيام الماضية الجميلة، أو أحلم بها.

(٩) ص، ش: «الأسد» فى موضع «الأزد».

أُناسٌ يأمنُ الجيرانُ فيهمْ ... كمكةَ مَا تمسُّ بهَا الحمامَا
ومَذْحجُ[١] إذ تقرُّ بهم جميعا ... رأيتَ قُرومَ مَذحجنا عظامَا
وفى هَمْدانَ[١] ضربٌ حينَ تلقى ... يطيرُ مَعاصمًا ويُبينُ هامَا[٢]
وإنْ أهْتفْ بكندةَ[١] يأت صفٌّ ... تُطلُّ رماحُهمْ مَلكا هُمامَا[٣]
وما لى دونَ خثعمَ[١] منْ صديق ... إذَا الفتياتُ أخرجنَ الخدامَا[٤]
وإن تَحضَرْ بجيلةُ[١] يومَ بأسٍ ... تُكشِّفْ عن مناكبىَ الزِّحامَا
وداعى الأشْعَرينَ[١] إذَا دعاهم ... مَنعْناهُ الجوامعَ أنْ يُضامَا[٥]
وحميرُ[١] حينَ يبدؤهَا كَريبٌ ... تكادُ أنُوفهَا تجلُو الغمامَا[٦]
وغسَّانُ[١] التى ملكتْ مَعدّا ... شآميهَا ومَنْ يرعى البَشامَا[٧]

---

(١) قبائل يمنية.

(٢) «يبين» كذا فى ش، وفى ص «يبير» والهام: جمع هامة، وهى الرأس، والمعنى أن همدان ذات صبر وشدة فى القتال تطير فيه الأيدى وتقطع الرءوس.

(٣) «تطل» كذا فى ش، ومعناه: تقتل وفى ص «تظل».

(٤) ش: «أخرجنا» فى موضع «أخرجن» وهو خطأ ظاهر.

والخدام: السيقان، أو الخلاخيل، وكشف النساء عن سيقانهن: كناية عن الشدة فى الحرب.

(٥) معنى البيت: أننا نمنع داعى قبيلة الأشعريين من الضيم فى الأمور التى يجتمع لها الناس، وهى الحروب.

(٦) «كريب» كذا فى ش، وجاءت فى ص بدون إعجام، ومعنى يبدؤها: يفجؤها، والكريب: المكروب.

(٧) «غسان» كذا فى ش، وفى ص: «حسان». وغسان: قبيلة يمنية، سكنت الشام، وصارت لها مملكة فيها، و «معدا» كذا فى ش، وفى ص «معد» والبشام: شجر طيب الريح، يستاك به.

ولا تتركْ قُضاعةَ[١] إنَّ فيهَا لنَا الحسبَ المُقدَّمَ والتَّمامَا
ولاقِ بحضرموتَ غداةَ عزٍّ خيارَ أُناسِ مُحْضَرة[٢] غشامَا[١]
جُذام[١] ليسَ مُحصيهَا قَبيلٌ إذَا داعى الصباح دعَا جُذامَا[٣]
وعاملةُ الحُماةُ[١] ومنْ يَراهمْ يرى الجُرْدَ السَّواهمَ والهجامَا[٤]
ولوْ أصبحتُ فى حَكَمٍ[١] مُقيما وخفَّ الزحفُ لمْ أرْهَبْ أثامَا
وخَوْلانُ[١] التى لمْ تُعْطِ إلا نبىَّ الله إذْ صلَّى وصامَا
وحاءٌ[١] لوْ رأيتَهُمُ جميعًا حَسِبْتَ الغابَ فوقهمُ إجامَا[٥]
فعُدًّا مثلَ ذا يا بَنىْ نزارٍ وذاكَ عليكمَا أمسى حرامَا
ولنْ تجدًا ملوكًا فى نزارٍ وآباءً كآبائى كرامَا
ولوْ سُئلتْ بلادُ الحربِ عنَّا وعنكمْ إذْ تَصادمنَا صدامَا[٦]
عَلمتمْ أنَّ كيدَكُمُ ضعيفٌ وولَّى الجمعُ فانهزمَ انهزامَا

---

(١) قبيلة يمنية، والتمام: العدد والكثرة.

(٢) محضرة: ماء لبنى عجل بين طريق الكوفة والبصرة إلى مكة، أى إن غشام خير الناس غداة طلب العز فى ذلك المكان.

(٣) محصيها: أى محيط بها، ويريد بداعى الصباح: داعى الحرب، لأنهم كانوا يغيرون صبحا، ولعلها الصياح بالياء، أى تصايح الفرسان فى الحرب للقتال، فيكون داعى الصياح، وهو داعى الحرب أيضا.

(٤) الجرد: الخيل القليلة الشعر، و «السواهم» كذا فى ش، وفى ص «. . . اهم» الواضح منها الجزء الأخير فقط، والسواهم: الضامرة، والهجام: جمع هجمة؛ وهى ما دون المئة.

(٥) الغاب: جمع غابة، والإجام: جمع أجمة، وهى الشجر الكثير الملتف.

(٦) «بلاد» كذا فى ص، وفى ش «بلاء» وقد جاء هذا البيت فى الأصول متأخرًا عن الذى بعده، ومحله هنا، لأن الذى بعده جواب للشرط الذى فيه.

كـمَـا كـانتْ جُـمــوعُكمُ تولَّى ... إذَا مَـا أبصـرتْ لَجِبًا لهُـامَـا(١)

تظلُّ جِـيـادُنَا منْ كـلِّ وجـه ... كفعلِ الطيرِ تختطفُ اللِّحامَا(٢)

ترى الجُرْدَ السـواهم حينَ تُعْطَى ... سِجالَ المـاء تَقتحمُ اقتـحامَا(٣)

وكلَّ مطـارَة خَـفِق حـشـاها ... أسـرَّتْ فى غـزاتـهم وحـامَـا(٤)

وشـاعـرِ مَـعْـشَـرِ فيـه طِمـاحٌ ... عنِ الشـعـراءِ كُنتُ لهُ زمـامَـا(٥)

يُخـاطـرُ عنْ عـشـيـرته خطارًا ... ويكسـو قـومـهُ حُـلَلا لئـامَـا(٦)

جنى حـربًا عليـه ذاتَ ضُـرّ ... وتلْقحُ ثُمّ يَـنْـتِـجُـهَـا تَـمـامَـا(٧)

تَلمَّسَ حُظْوةً فـأصـاب ذَمّـا ... وعـرَّدَ وهيَ تضطرمُ اضطرامَـا(٨)

تركتُ لقـومـه عـيـبًا مُـبـينًا ... يكونُ عـلى أنوفـهم خِطامَـا

وقـالَ أُنـاسـهُ لمْ يُغـنِ شـيـئًا ... عـلامَ قـذَفتْ أنفُسَنَا عَـلامَـا؟!

---

(١) تولى: هرب، والجيش اللجب: ذو الجلبة والكثرة، واللهـام: الجيش العظيم، كأنه يلتهم كل شيء.

(٢) اللحام: جمع اللحم.

(٣) السجال: جمع سجل، وهى الدلو بها الماء.

(٤) المطارة: المفزوعـة، وأسرت: كتمت، ويكون أيضا أعلنت، والغـزاة: الغزوة، والوحام: شهوة الحبلى خاصة.

(٥) الطماح: الكبر والفخر، والزمام: الخطام.

(٦) يخاطر: يعرض نفسه للهلاك دفاعا عن عشيرته.

(٧) تلقح: تحمل، «ثم ينتجها» كذا فى ص، وفى ش: «قبل منتجها».

(٨) عرد: هرب، وتضطرم: تلتهب.

تُعَــرِّضُ بامــرئٍ فــيــه أناةٌ قــديم العيص يَنتـقمُ انتـقامَـا(١)
فـمـاذا يـبـتـغي الشُّـعـراءُ منِّي وقـدْ قـسَّـمْتُ بينهمُ قَـسـامـا
قـضيتُ قـضيـةً فيـهمْ فجـازتْ بها يُقـضى إذَا احتكموا احـتكامَا

انتهى الموجود من شعر
سراقة بن مرداس البارقي الأصغر

---

(١) العيص الأصل: يريد أنه ذو نسب قديم عريق.

زيادات على الديوان

هذه زيادات من أخبار سراقة وأشعاره، عثرت عليها فى بعض كتب الأدب والتاريخ، وأنا أوردها هنا إتماما للديوان:

١- فى الأغانى جـ٩ ص١١ طبعة دار الكتب المصرية القصة التالية: أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى، قال: حدثنا عمر بن شَبَّة ولم يتجاوزه، وأخبرنى الحرْمىُّ، قال: حدثنا الزبير بن بكار، قال: حدثنا عبد الرحمن بن الخضر الخزاعى، عن ولد جمعة بنت كُثَيِّر: أنه وجد فى كتب أبيه التى فيها شعر كُثَيِّر، أن عبد الملك بن مروان قال: ويحك! الْحَق بقومك من خزاعة، فأخبر أنه من كنانة قريش، وأنشد كُثَيِّر قوله:

أليس أبى بالصَّلْتِ أم ليس إخوتى ... بكل هِجانٍ من بنى النَّضْر أزهرا
فإن لم تكونوا من بنى النضر فاتركوا ... أراكًا بأذنابِ القوابل أخضرا
أبَيْتُ التى قد سُمْتَنِى ونَكِرْتها ... ولو سُمْتَها قبلى قبَيصة أنكرا[1]
لبسنا ثياب العَصْبِ فاختلط السَّدَى ... بنا وبهم والحضرمِىَّ المُخَصَّرا

فقال له عبد الملك: لابد أن تُنشد هذا الشعر على مِنْبَرَى الكوفة والبصرة، وحمله ، كتب إلى العراق فى أمره، قال عمر فى خبره خاصة: فأجابته خزاعة الحجاز إلى ذلك، وقال فيه الأحوص ـ ويقال: بل قال سراقة البارقى:

(١) هو قبيصة بن ذؤيب الخزاعى الكعبى، أبو سعيد وأبو إسحاق، ولُد فى حياة النبى ﷺ، وتوفى سنة ٨٦هـ.

لَعمرى لقد جاء العراقَ كُثيرٌ ... بأحدوثَة من وحيه المتكذِّبِ
أيزعمُ أنى من كنانةَ أوّلى ... ومـا لِّى من أمٍّ هنَاك ولا أبِ
فإن كنتَ حرّا أو تخافُ مَعرَّةً ... فخذ ما أخذتَ من أميرك واذهبِ

فقال كثير يجيبه ـ وفى خبر الزبير: قال هذا ـ لأبى علقمة الخزاعى: وفى رواية الزبير، «أبا علقم»:

بنو النضرِ تَرْمى من ورائك بالحصى ... أولُو حسبٍ فيهم وفاءٌ، ومَصْدَق
يُفيدونكَ المال الكثيرَ ولم تجدْ ... لِملكهم شِبْهًا لوَ انك تصدُق
إذا ركبوا ثارتْ عليك عَجاجةٌ ... وفى الأرض من وقع الأسنة أوْلَقُ(١)

فأجابه الأحوص بقوله:

دعِ القومَ ما حلُّوا ببطن قُراضِمٍ ... وحيثُ تفشَّى بيضُه المتفلِّقُ(٢)
فإنك لو قاربتَ أو قلتَ شُبْهةً ... لذى الحقِّ فيها والمخاصم مَعْلَق
عذَرْناك أو قلنا صدقتَ وإنما ... يُصدَّق بالأقوال من كان يصدُق
ستأبى بنو عمرٍو عليك ويَنتمى ... لهم حسبٌ فى جِذْمِ غسانَ مُعْرِقُ(٣)
فإنك لا عمرًا أباك حَفظتَه ... ولا النضرَ إن ضيَّعتَ شيخَك تلحقُ
ولم تُدركِ القومَ الذين طلبتهم ... فكنت كما كان السِّقاءُ المعلق

(١) الاولق: الجنون.

(٢) قراضم: موضع بالمدينة.

(٣) الجذم: الأصل.

بجِذْمـة ساقٍ ليس منه لـحاؤها ... ولم يكُ عنـهـا قلبُـهُ يتـعلق[١]
فأصبحتَ كالمُـهْرِيقِ فَضْلةَ مائه ... لبادى سـرابٍ بالمَلاَ يتـرقرقُ[٢]

قـال: فخرج كـثير، فأتى الكوفـة، فرُمى به إلى مسجـد بارق، فقالوا له: أنـت مـن أهل الحـجاز؟ قـال: نعم، قالوا: فأخبرنا عـن رجل شاعرٍ ولد زنًا يـدعى كُـثيرًا، قـال: سـبحـان الله! أما تسـمـعـون أيهـا المـشـايخ ما يقـول الفـتيان! قـالوا: هو مـا قاله لنفسه، فانسلَّ منهم وجاء إلى والـى الكوفة حسان ابن كَيْـسـان، فطيَّره على البـريد، وقـال عـمر بن شـبة فى خـبره: إنَّ سـراقة البارقـى هو المخاطِب له بهذه الشتـيمة، وإنه عرفه وقال له: إن قلتَ هذا على المـنبـر قَـتلَتْـك قحـطان، وأنـا أولـهم، فـانـصرف إلـى منـزله، ولـم يعُدْ إلى عبد الملك.

* * *

٢- وفـى «الطبـرى» عـام ٦٦هـــ، أن سـراقة بـن مـرداس قـال يوم جبـانة السبيع:

يا نفسُ إلا تَـصْبِـرى تُلِيـمى ... لا تَتَـــوَلَّىْ عنْ أبـى حَكـيمِ[٣]

* * *

٣- وفى «المحاسن والأضـداد» فى باب «محاسن الدهاء والحيل» البـيتان الآتيان منسوبين لسراقة:

(١) الجذمة: القطعة، واللحاء: قشر الشجرة.

(٢) الملا: الصحراء.

(٣) تليمى: تجلبى اللوم.

قـالوا سـراقـةُ عنِّينٌ فـقلتُ لهمْ ... اللهُ يعـلمُ أنى غـيـرُ عِنِّينِ[1]
فإنْ ظَننتمُ بىَ الشىءَ الذى زعـموا ... فـقـرِّبونى منْ بنت ابنِ ياسـينِ[2]

* * *

انتهت الزيادات بحمده تبارك وتعالى

---

(١) العنين: الذى لا يقدر على إتيان النساء، أو لا يشتهى النساء.

(٢) فى الشافية: «طلبتم» فى موضع «ظننتم» و «ابن يامين» فى موضع «ابن ياسين».

فهارس

ديوان

سُراقة البارقي

١ - فهرس الأعلام

٢ - فهرس الشعراء

٣ - فهرس القبائل والجماعات

٤ - فهرس المواضع

٥- فهرس القوافي والأوزان

٦ - فهرس الموضوعات

٧- فهرس تاريخ القصائد

رقم الايداع	١٨٢٦٥ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولي	977-341-012-9